

محي الدّين صبحي

المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان
طرابلس ـ الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

محيي الدين صبحي

العروبة

أكثر من أيّ وقتٍ مضى

المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان
طرابلس - الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

الطبعة الأولى

1394 و.ر - 1984م



إهداء الكتاب

إلى عمر الحامدي

نموذجاً للمؤمن بعروبته :

عمل صامت

وصبر لا ينتهي

وإصرار على المبدأ

مقدمة

العروبة . . أكثر من أى وقت مضى لا تشكل فقط حلاً لمشكلاتنا الداخلية والخارجية ، بل إنها أيضاً قيد التحقق ـ وإلاّ ، فلماذا هذه الهجمة العمياء تشنها القوى المعادية من حدود الجزائر الى ليبيا فمصر وسوريا وبقية البلاد العربية ؟ لولا أن العروبة على وشك أن تحقق نفسها لما وجدت كل هؤلاء الأعداء يتكالبون على أرضها وشعبها وقياداتها فيمعنون تقتيلاً وتفتيتاً فى النخبة والقاعدة على السواء ، وهم مع ذلك يشعرون بأنهم لم يربحوا ضدنا المعركة . فلا الولايات المتحدة مطمئنة ، ولا إسرائيل آمنة ، ولا أوروبا الغربية مستريحة ، ولا الاتحاد السوفياتى نفض يديه من قضايانا ، ولا العالم الثالث يئس منا ، ولا نحن ألقينا السلاح ، ولا حتى أطفالنا جزعوا من هول ما نلاقى .

فى مجلة Foreign Affairs، وهى تمثل فكر وزارة الخارجية الأمريكية ، يدور حوار منذ عامين حول العروبة : هل ماتت وانتهت أم ما تزال فيها بقية من دماء الحياة ؟ لقد شغلت بعض المجلات العربية نفسها وكتّابها بمناقشة ما جاء فى تلك المجلة ، وأعترف بأننى لم أتتبع هذا الجدل البيزنطى العقيم بعد قراءة حلقتين منه ، لكننى تمنيت أن يرسل امرؤ الى المجلة رسالة يسألها : إذا ماتت العروبة ، وأُلحدت فكرتها ، وطارت فى السديم آمال الوحدويين العرب ، فلماذا تستنفر الولايات المتحدة كل قواها لإخضاع العرب أو استمالتهم ، ثم ينكص مبعوثوها الى المنطقة وهم يشعرون بالإحباط وكأنهم تجاه حرف لا يقرأ ؟ .

فلا عزل مصر ، ولا إثارة الفتن ، ولا حروب الحدود ، ولا إفناء الشعب الفلسطينى الأعزل الذي استفردت به إسرائيل . . يضمن استسلام العرب لأعدائهم ، أو انتهاء مقاومتهم أو انحراف وعيهم ، أو ثنيهم عن أهدافهم .

إيمانى الثابت ، وعقيدتى التى لا يتطرق إليها الشك ،

أن الضغوط الخارجية لن تؤثر أكثر مما فعلت على فكرة العروبة التى تجد تجسدها فى الدعوة إلى الوحدة . لكن العروبة تتأثر من سوء الفهم لها أو للعصر الذى نعيش فيه . وهذا محور المقالة الأولى .

« العروبة سياسة لا ثقافة » محاولة لوضع العروبة فى السياق الصنعى ، سياق حضارة هذا العصر . فالعناصر الفطرية فى تكوين الأمة ، من أرض ولغة ودم لم تعد كافية . القومية تصنع صناعة فى هذا العصر . وانحلال القومية يتم أيضاً بشكل صنعى . وقد اتخذت من الصهيونية مثلاً متطرفاً على الجانب الصنعى المطلق فى محاولة بناء قومية ، كما أظهرت أن العناصر المتفق عليها فى القومية ، من لغة وأرض وتاريخ وثقافة واقتصاد وإرادة ، يمكن المنازعة فيها بحيث إن العرب يتعرضون لسلب هذه العناصر منهم ما لم تتخذ قياداتهم قراراً سياسياً لتحقيق الوحدة . أى تبقى الإرادة هى العنصر الفاعل فى كل مقوم من مقومات القومية .

هذه الإرادة العربية جسَّدها فى أتم عنفوانها القائد الرئيس جمال عبد الناصر . والذين يقولون إن منجزاته

غـابت معه إنمـا يضلون ضلالاً بعيـداً ، فهؤلاء هم الذين ينعون العروبة . فإرث النـاصريـة إلى اليوم أعـظم من أن يضيـع . لقد وضـع إمكـانـات مصـر فى خـدمـة القضيـة العربية، وأعاد تسيـيس العرب، وأشعرهم بأنهم صانعو مصيرهم ، لذلـك خاطبهم من وراء حكـوماتهم و عرَّفهم بـأن مفهوم المصلحـة القوميـة يقوم عـلى معرفـة حسـابيـة بـالتضحيات الإقليميـة المطلوبـة . . كل هـذه الممارسـات تـرسبت فى الوجـدان الجمـاعى للشعب العـربى ووجهت سلوكـه حسب مقـاييسهـا ، وهى مقـاييس تفـوق أى إيـديولـوجيـا جـاهـزة أو مـوضـوعـة . وهـذه هى الإرث الحقيقى الـذى تركـه القائـد الرئيس جمـال عبـد النـاصـر لأمته .

وقـد عـدت إلى هـذا المـوضـوع فى المقـالـة الثـالثـة : « الأهداف الحضاريـة للأمـة العربيـة » . فقد وجـدت أن هـذه الأهداف أكبـر من أن يقـررهـا أى مفكـر . لـذلـك لجـأت إلى شخصيتين وقـع عليهما اجمـاع العرب فى بـدايـة تـاريخنا وفى عصـرنـا الحـديث . فكـان الخليفـة عمـر بن الخطاب صاحب الفتوح ومؤسس الدولـة . وقد وجـدت

فى ممارساته التي قبلها العرب وبالتالى عبَّرت عن أهدافهم الجماعية :

1 ـ نفى الاغتراب بين القيادة والشعب .

2 ـ الإصرار على التحرير ، مع الحرص على تجنب المغامرات العسكرية .

3 ـ التسوية بين الناس جميعاً أمام القانون .

4 ـ العدالة فى توزيع الدخل القومى .

5 ـ الضمان الاجتماعى .

6 ـ وحدة الدولة وتقدمها .

7 ـ الاهتمام بمكانة العرب الدولية ، بحيث تكون الدولة العربية هى الدولة القدوة ، فلا تطمح أنظار مواطنيها وراء حدودها لإحقاق حق أو دفع ظلم .

8 ـ الشورى بين السلطة وأولى الرأى فى المجتمع .

وقد وجدت أن جهاد القائد الرئيس جمال عبد الناصر لم يخرج عن هذه الأهداف . فعمدت إلى تحليل مفهومه عن « الثورتين » . إحداهما لاستعادة الحرية السياسية ، وتتطلب جمع كلمة الطبقات والاتجاهات ؛ والأخرى

لتحقيق العدالة الاجتماعية مما يضطرها الى تفريق المجتمع حسب تضارب المصالح . وهذا ما جعله يؤسس « الاتحاد القومى » أولاً ، حين كان يواجه الاستعمار البريطانى والفرنسى ، ثم « الاتحاد الاشتراكى » حين أراد أن يعمق التحويلات الاقتصادية الاشتراكية . ولئن كانت دولة ابن الخطاب قد حققت أهداف الأمة فى التحرير والعدالة ، فإن دولة عبد الناصر قد أعادت بعث هذه الأهداف فى النفوس وأظهرت إمكان تحقيقها عبر نجاحها فى التحرر من الاستعمار القديم وإقامة دولة الوحدة مع سورية . إلّا أن شراسة الصهيونية والامبريالية ، وتخاذل الطلائع العربية وتشرذمها عزلا مصر وأسلماها إلى حالة الحصار التى كان القائد يحذر منها طيلة حياته .

وكما حاولنا مراجعة حساب الناصرية فقد راجعنا الفكرة القومية العربية كما جاءت فى مطلع الأربعينات على قلم واحد من أكبر مفكريها ودعاتها ، الدكتور قسطنطين زريق . وفى الحقيقة أننى كنت بصدد مراجعة أفكاره عبر العديد من كتبه ، إلّا أنه حين وافق على قراءة البحث عنه قبل النشر ، عمدت إلى تحويل البحث إلى

أسئلة طامحاً أن أحظى منه بجواب عن السؤال الأساسى فى هذه المرحلة : ماذا أنجزت الحركة القومية خلال أربعين عاماً من تنظيره لها ، وفى أى النواحى يتم التراجع ؟

الجواب الفعلي جاء من مصر السادات . إن التطبيع الثقافى أخطر أنواع الاستعمار على الإطلاق . بل إنه بداية الاستعمار الفعلى وغايته النهائية ، لكونه يتصل بتكوين شخصية المواطن ونظرته إلى غاية حياته الثقافية والنضالية ، إلى معنى الوطن وروابط المجتمع والأمة . فحين تفرض إسرائيل مناهج دراسة القرآن والدين الإسلامي والتاريخ العربى القديم والحديث والأدب العربى القديم والحديث والتوجيه القومى والسياسى فى الصحافة والأدب والإذاعة المرئية والمسموعة والخيالة وكتب الأطفال . . . تغدو العروبة فى خطر. والأخطر من ذلك أن بقية العرب خارج مصر عاجزون عن تأسيس كتلة سياسية تعدل وزن مصر المفتقد والمفقود ، وبالتالى فهم عاجزون عن إنتاج ثقافى وسياسى يعدل النتاج المصرى . الأخطر من ذلك كله أن الثقافات العربية الإقليمية فقدت مراكز اتصالها بفقدان القاهرة وبيروت .

هذه التجزئة تجعل من التطبيع الثقافى خطراً حقيقياً .

ولكن العروبة على جناحها الغربى أو المغربى تسجل انتصارات حقيقية . فحركة التعريب ثبتت أقدامها بتسارع يفوق تسارع انتشار العربية فى عصر الفتوحات فى القرنين السابع والثامن . الأهم أن المجتمع المغربى يسير نحو التكامل بين شطريه من العرب والبربر . وقد أسعفنى فى هذا البحث أننى كنت فى لندن فتوصلت إلى مصادر من مكتبة جامعتها ما كان ليتيسر لى مطالعتها لو لم أكن هناك . ومن المؤسف أن قائمة مصادر البحث قد ضاعت من المقال .

أخيراً فإن كتاب بريجنسكى يشكل خلفية قوية تعكس النظرة المتعالية التى توجهها الولايات المتحدة إلى العالم، وتصور روحها العدوانية الطاغية . إلّا أن الجيد والجديد فى الكتاب عرضه لمستقبل التطور العلمى الالكترونى وتأثيره على المجتمعات المتقدمة ، ثم استعراضه لمشكلاتها سواء فى الولايات المتحدة أو الاتحاد السوفياتى أو أوروبا الغربية . كما أن الكتاب يتابع تطور الفكرات الثلاث المحركة للوجود الإنسانى : الدين والقومية

والاشتراكية ، فينفى العامل القومى بدعوى أن الزمان تجاوزه ، فالأمم التى حققت قوميتها صار عليها أن تدخل فى مشروعات متعددة القومية ، والأمم التى لم تحقق قوميتها ستنشغل إما بالدين أو بالاشتراكية ـ وهذا يعنى أن الولايات المتحدة سوف تظل على عدائها التقليدى للوحدة العربية وأنها سوف تشجع التلاعب بالعواطف الدينية فى البلدان المتخلفة ، وأنها تتعامل مع الأنظمة اليسارية إذا لم تلتحق صراحة بالاتحاد السوفياتى . إن نظرة بريجنسكى إلى العالم الثالث تتصف بالعدمية فهو لا يرى لهذا العالم مستقبلاً إلاّ فى حروب أهلية طاحنة وفى مزيد من التخلف . حين نشر بريجنسكى تنبؤاته عن المستقبل سمته أجهزة الإعلام السوفياتية « مزيف المستقبل »، على اعتبار أن بريجنسكى يرأس معهد دراسات المستقبل . ونحن نتمنى أن يكذِّب المستقبل نبوءات هذا الكاهن المزيف ، لأنه لا يحمل بين أضلاعه قلباً يتعاطف مع تطلعات البشر إلى السلام والرفاهية .



العُروبة سِيَاسَة .. لَا ثقَافَة



عند الحديث عن العروبة ، ينبغى أن نضع فى حسابنا حدَّين يحدان كل فكرة اجتماعية فى مسارها التاريخى ، وهما :

1ـ روح العصر .

2ـ التحقق فى الواقع .

إذ ليس فى إمكاننا أبداً أن نبحث فى طبيعة فكرة من الأفكار التى تتعلق بمصير جماعة من الناس لها مثل هذا العدد الضخم الذى للعرب ، دون مراعاة روح العصر . ففى العصور الوسطى كان الروح العالمى السائد دينياً ، فاتخذ المصير الإنسانى شكل جماعات دينية كبيرة تتألف من قوميات متعددة . فليس صدفة أن حركة التعريب بدأت بالتراجع منذ بداية القرن العاشر الميلادى ، فعاد الفرس

إلى لغتهم ، واعتنق الأتراك السلاجقة الاسلام لكنهم ظلوا أتراكاً فى لغتهم وعاداتهم ـ ومع ذلك فقد ظل الاسلام عنصراً تكوينياً رئيسياً يربط مختلف الجماعات البشرية من حدود الصين الى فرنسا ، وصقلية وجنوب إيطاليا . وليس صدفة أيضاً أنه عند امتداد الإسلام وانحسار تعريب الأقوام المسلمة ، شنت أوروبا حروبها الصليبية التى دامت قرنين شغلا الفترة القائمة بين القرن الحادى عشر والقرن الثالث عشر للميلاد :أوروبا أيضاً بدأت تجرب تحقيق ذاتها عن طريق الوحدة الدينية . بالمنطق ذاته الذى يمليه روح العصر ، قامت السلطنة العثمانية فى آسياوإفريقية على حلف تركى ـ عربى مثلما قامت امبراطورية الهابسبرغ فى أوروبا على حلف ألمانى ـ مجرى . لقد احتل الأتراك أراضى بيزنطة وأقاموا لأنفسهم وطناً على أراضيها الآسيوية ، القسطنطينية وما حولها . ولما كانوا متحالفين مع العرب والمسلمين فقد اضطروا أن يقصروا توسعهم السكانى ـ الاستيطانى على الأراضى الواقعة غربى القسطنطينية . وهذا ما جعلهم على صدام مستمر مع المسيحية الأرثوذكسية فى شرق أوروبا ، واضطرهم فى الوقت نفسه

الى مهادنة المسيحية الكاثوليكية فى أوروبا الغربية : مما يفسر ضياع أسبانيا بسبب توانى العثمانيين الذين كانوا يحكمون الجزائر عن نصرة مسلمى أسبانيا ، كراهية من العثمانيين أن يضطروا إلى الحرب على جبهتين فيوحدوا ضدهم شطرى المسيحية ، ويوحدوا معها شطرى أوروبا أيضاً .

من هذه القراءة التاريخية السريعة نتبين مدى تأثير روح العصر على مجريات التاريخ فى حقبة من الحقب . إن هذا التأثير ينطوى على حتمية لا فكاك منها لأى حدث من الحوادث التى تجرى فى مدى تكوُّنه . وبما أن روح العصر الحديث - أى منذ القرن الثامن عشر الذى يحدد بداية تحرر أوروبا من التأثير الفكرى العربى ونهاية الروح الدينى للعصور الوسطى - يتسم بالعلمانية العقلانية ، فإن كل ما يجرى فى العصر الحديث ينطبع حتماً بالطابع ذاته . وكان تشكل المجتمع - الدولة أول ما تأثر بروح العقل . فقد انفرطت الوحدة الدينية وحلت محلها الوحدة القومية ، فظهرت الدولة القومية على مراحل . وبعد أن كان الإنسان تابعاً للطبيعة وما بعد الطبيعة صار يتحكم بها مثلما يتحكم بمصيره السياسى . فولد العلم والديمقراطية

والدولة القومية فى أوقات متقاربة . وتلا ذلك ولادة المشروع الفردى الحر وتشكل الرأسمالية والفتوحات الاستعمارية . إن تزامن هذه المشروعات أمر مدهش . فما أن حققت أسبانيا تحررها وأنهت حروب الاستعادة حتى انخرطت فى اكتشاف أمريكا ، واشتبكت مع بريطانيا وهولندا ثم فرنسا بحروب استعمارية . ولم تقنع بريطانيا باحتلال الهند بل أرفقته باستيطان شمالى أمريكا لأن السيطرة على البحار التى مكّنتها من الوصول إلى الهند مكنتها من الوصول إلى أمريكا ، وفى أعقاب ذلك مباشرة بدأ عصر البخار ، أى عصر التحكم بالطبيعة عن طريق العلم . فى القرن التاسع عشر بدأ عصر التصنيع ، فاستكملت الحضارة الغربية وسائل السيطرة على ذاتها وعلى العالم كسوق وموارد أولية فى وقت واحد .

إن التصنيع ليس عملية إنتاجية فقط . ويخطىء كل مفكر ينظر إليه من زاوية آلية . ليس التصنيع إنتاجاً فقط ، ولا استعماراً فقط ، ولا استهلاكاً فقط . ليس التصنيع علاقات عمل فقط . وخطأ المنظرين الماركسيين العرب ، على اختلاف

فئاتهم وتعددها، أنهم نظروا إلى التصنيع من زاوية اقتصادية محضة .

التصنيع فكرة ، مثال ، طريقة فى النظر إلى الحياة والتاريخ والكون ، مثلما هو طريقة فى الحياة أيضاً . وليس عبثاً أن تزامنت النظرة الداروينية مع النظرة الماركسية ، فكلتاهما تستخدم العملية الصناعية Industrial Process لتشرح فهمها للتطور فى الحياة وللتطور فى التاريخ . كانت النظرتان إسقاطاً للمنهج الصناعى على الطبيعة مرة وعلى التاريخ مرة . فجأة ، صار الإنسان يفسر بالآلات التى يخترعها : العصر الحجرى ، البرونزى ، الحديدى ، الزراعى ، الصناعى . . وصارت الدولة آلة خاضعة للاقتصاد بعد أن كانت تجسيداً للمطلق .

لأول مرة فى التاريخ صارت الدولة تصنع صنعاً . صارت تُفصَّل ، مثل أى قماش ، على مقاس الطبقات صاحبة المصلحة بقيامها . الطبقة الرأسمالية « تنتج » القوانين المعبرة عن مصالحها و «تصنع » أجهزة الدولة التى تحمى هذه المصالح أما الطبقة العمالية فتمثل الوعى الأكثر تقدماً ، وعى المستقبل . لذلك فان الدولة العمالية نتاج

صنعى[1] مائة بالمائة . إنها نتاج عقل رياضى تطبيقى . وبالتالى فإنها تخلو من أية عضوية تتمثل فى المؤسسات السابقة على الصناعة تخلو من الدين والمؤسسات الدينية، تخلو من المشروعات الفردية، تخلو من الإحسان والمجانية والعفوية . وما انعدام الرحمة أو التسامح فيها إلا مظهر من مظاهر آليتها المطلقة . ونحن لا ننعتها بانعدام هذه الصفات لنوحى بأن الأنظمة الأخرى أكثر تمتعاً بها ، وإنما لنظهر ما للدولة الصنعية من خصائص . هذه الخصائص يعتبرها المعتقدون بها ميزات تؤهل الدولة الصنعية لكى تصبح دولة صناعية . وهى خصائص ترفض أية مصالحة مع الماضى . فسلطة العقل لا تتجزأ ولا تخلى مكانها لأية سلطة أخرى، وخاصة لروح العصر السابق ـ الروح الدينى . ويكذب كل من يزعم أن النظام الرأسمالى ـ الديمقراطى أكثر تسامحاً مع الروح الدينية أو أكثر إيماناً بالحرية من النظام الاشتراكى . فالمشروع الرأسمالى هو الذي أبدع سلطة العقل وأحلها محل سلطة

---

(1) صنعية بعكس فطرية . وقد اقتبسناها من مقولة « الطبع والصنعة » فى النقد الأدبى .

النقل . كل ما فى الأمر أن إيمانه بالفرد أفسح المجال للفرد لكى يؤمن . أما الدولة الرأسمالية فدينها مصلحتها ، شأنها شأن الدولة الاشتراكية سواء بسواء . وحرية الفرد الدينية نتاج ثانوى لحريته فى البحث عن السعادة . حتى رأس المال ليس حراً فى الدول الرأسمالية الديمقراطية . فهو ليس حراً فى أن يخسر . وليس حراً فى أن ينتقل الى العالم الثالث أو المعسكر الاشتراكى مثلاً : « ما ينفع فورد ينفع أمريكا » ـ هذا الشعار يبين مدى اندماج رأس المال بالدولة والعكس . أما حرية الفكر ، فإن كل من أتيح له شىء من الاطلاع على طريقة خضوع وسائل الإعلام الغربية لآراء السلطات السياسية والاقتصادية فى الغرب ، لا بد أن يجد من الغريب إثارة أى حديث عن حرية الفكر: أفكار العامة مبرمجة وفق توجيهات الإذاعات المرئية والمسموعة والمكتوبة ومناهج التدريس والكتب «العلمية» وحتى الروايات التخييلية . أما أفكار المثقفين فإنها تتراوح بين تسييس الفكر التقنوقراطى واجتهادات مفكرى المؤسسات السياسية القائمة من أحزاب ومعاهد بحث . لا يكاد يشذ عن ذلك واحد من كل عشرة آلاف مثقف .

وأقـرب مثالـين منا نجـدهمـا فى التـوجيـه الإعـلامى خـلال حـرب فيتنـام ، وإذ ذاك لم يسمـح لصـوت معــارض بـأن يرتفع . أما الأصوات التى جـرؤ ت على شجب الحـرب فقد كتمت أنفاسها بقسـوة ، بدءاً من المـلاكم محمد عـلى كلاى الــذى حـرم من اللقب واللعب وانتهــاء ببعض الممثـلات اللواتى تعـرضن للإهـانات والفضـائح . إن الإرهـاب على الضفة الأخرى لا يتجاوز هذه الممارسات « الديمقراطية » .

ما علاقة كل ذلك بالقومية ؟

وأين يقع المفهوم القومى من روح العصر ؟

لا أتردد فى الجزم بـأن القوميـة كمعطى طبيعى قـوامه الدم والنسب أو اللغة ومجموعة القيم والعـادات اليوميـة ـ لا مكان لها فى العصـر الحديث لأن روح العصـر ترفض كـل ما هـو طبيعى . تـرفضـه بمعنيـين : فهى إمـا أن تقضى عليـه قضـاء مبرمـاً ، كما يجـرى القضـاء عـلى الحشـرات والهنـود الحمر ، والشخصية الأصليـة للزنجى الأمريكى ؛ وإمـا أن تـأخـذ روح العصــر أى معـطى طبيعى فتــدخله فى آلاتهـا لتصنع منه ما تريد له أن يكون . والقوميـة لا تشذ عن هـذه المعـطيات الـطبيعية التى قضى عليهـا روح العصر أو حوّرها

تحـويلاً غـدت به شيئـاً آخر . والـدليل هنـا أيضاً نجـده فى محـاولة الأمـريكان حـل مشكلة الزنـوج الأمريكيـين ، فقد أنشأوا لهم دولة ليبريا وشجعـوهم على العـودة إلى إفريقيا . ومن تبقى من الزنوج عليـه أن يصبح أمـريكياً أو يبقى عبـداً متخلفـاً . كـذلـك الأمـر بـالنسبـة للمكسيكيـين ودولـة المكسيك . فبعد أن استولت الولايات المتحدة عـلى ولايات كـاليفورنيـا وتكساس وأريـزونا ، وطـردت المكسيكيين من شمـالى القـارة الأمـريكيـة سمحت لهم بـإنشـاء دولتهم المتواضعة على حدودها الجنوبية .

عـلى أن الأمر لا يقف عنـد هـذا الحـد . فـالقـوميـة الصنعيـة تختلف عن القوميـة الـطبيعيـة فى أن الثـانيـة تنمـو بحسب مواهب أهلها وظروفهم الجغرافيـة والتاريخيـة . أى كما نمت الأمة الفـرنسية والأمـة الانكليزيـة . أما القـوميات التى تحققت بعـد ذلك فكـان الجانب الصنعى يـزداد حجمه بالتدريـج ، فالقـومية الألمـانيـة جـاءت متـأخـرة عن الـركب الفـرنسى ـ الانكليزى ، ممـا اضـطرهـا إلى التشـديـد عـلى الـذات ، فـانتحلت لنفسهـا خصـائص عـرقيـة : الألمـانى المحب للنـظام . الشجاع ، العبقـرى ، المؤمن بأمتـه ، فى

مقابل الفرنسى - الانكليزى الذي يتغنى بسلطة العقل والمشروع الفردى . وجاءت القومية الروسية بعد ذلك فكانت أدخل فى باب الصنعة من بقية القوميات قبلها . فقد اضطرت إلى خلق نظام صنعى لم يسبق له مثيل . الدولة الاشتراكية الأولى فى العالم . وكانت تواجهها عقبتان ، التصنيع والاحتفاظ بالمستعمرات القيصرية . فحلت مشكلة التصنيع بابتكار وسيلة القطاع العام حيث يكون كل شىء ملكاً للدولة التى تعيد تخطيطه وفق أولويات التقدم . وحلت مشكلة المستعمرات بدفع راية الأممية ، أى المساواة بين القوميات . فهذه القوميات الصغيرة أتاح لها النظام اللينينى فرصة الإشباع القومى الكامل مقابل التكامل مع التوجهات المركزية للدولة الروسية الأكبر والأكثر تطوراً . والمبدأ نفسه تقريباً طبقه الاتحاد السوفياتى مع منظومة الدول الاشتراكية التى تكونت حوله بعد الحرب العالمية الثانية ، عبر مؤسسات الكوميكون ومعاهدة حلف وارسو . ولأول مرة وجدت هذه القوميات الصغيرة أن بإمكانها ، عبر خضوعها لنظام سياسى موحد وتخطيط شبه مركزى ، أن تحافظ على

شخصيتها وتحقق ذاتها وتلعب دوراً عـالمياً ـ ربمـا لأول مرة فى التاريخ . بعـد الحرب العـالمية الثـانية لم تتحقق عـلى صعيد الدولة ـ الأمة سوى القـومية الصينيـة والقوميـة الفيتناميـة . ولم يمض وقت كاف بعد للبحث فى غير تجربـة هاتـين الأمتين فى الوحدة والتحرر. علماً بـأن ممـا يلفت النـظر ان هـاتـين الأمتـين لم تتحـررا إلاّ بعــد الأخـذ بـالنـظام الاشتــراكى والعقيدة الماركسية . وإن كانت تجربة الهند الديمقـراطية مـع التطور وفق تنظيم اشتراكى ، تجربة تلفت النظر عـلى اعتبار أنها التجربةالوحيدة فى العالم الثالث .

هناك قوميـة زائفة صنعت قبـل الحرب العـالمية الأولى وتحققت بعـد الحرب العـالمية الثـانية عـلى أرض فلسطين . هي الصهيونية . فقبل مطلع هذا القرن ، ولأكثر من ثلاثـة آلاف عـام كانت اليهـودية ديناً مثـل أي دين يضم مؤمنـين من قـوميات شتى . وكـانت علاقتـه مع بقيـة الأديـان مثـل عـلاقة أى دين ببقيـة الأديان : مـزيجاً من المماحكـات التى تؤدى مـرة إلى الصلح ومرة إلى الاضـطهاد . غـير أن اليهود انفردوا دون أتباع الأديان الأخرى بكـونهم أقليات مشتتـة لم يتح لها أن تضـطهد غيـرها ، فكـانت تدخـل فى شراكـة مع

المضطهدين لكنها كانت وحدها تعاقب وينجو شركاؤ ها .
وقد أجاد كارل ماركس فى إبراز هذا الجانب من التاريخ اليهودى على مر العصور . لذلك اعتبر أن لا وجود للمسألة اليهودية إلا بقدر ما يتعلق الأمر بالمسألة الطبقية فى أوروبا . فالرأسماليون اليهود شركاء فى النظام الرأسمالى مثلما أن فقراء اليهود شركاء للبروليتاريا الأوروبية . إلا أن هذا الأمر لم يعجب المثقفين اليهود المصابين بعدوى النزعة القومية فى روسيا وألمانيا . فاعتبروا الدين اليهودى قومية ، وأن القومية لا تتحقق إلا على أرض الميعاد . ثم أجّروا مشروعهم القومى للامبراطورية البريطانية أولاً ، وحين غابت عنها الشمس أجّروه للامبريالية الأمريكية . ولا يهمنا فى هذا المقام هذا الجانب الذى غدا ملموساً بطائرات الفانتوم ومدافع الهاوزر ومختلف أشكال المساعدات الأمريكية . ما يهمنا هنا النظر فى تطور صنع المشروع القومى الصهيونى . فقد بدأ فى مطلع القرن بعرض صورة اليهودى المكروه من قبل شعوب أوروبا جميعها التى تعاقبت على اضطهاده . بعد الحرب العالمية الثانية أضيفت إلى صورة الملاحقة التاريخية صورة اليهودى

فى المعتقلات النازية . وأفلح اتحاد المطامع الصهيونية - الغربية فى حمل أوروبا بشطريها على نسيان أربعين مليون قتيل فى الحرب العالمية الثانية والاقتصار على تذكر ثلاثة ملايين يهودى اضطهدهم هتلر . بعد قيام دولة إسرائيل وحروب العرب الفاشلة أضيفت إلى صورة اليهودى المضطهد خلال التاريخ خارطة « الدولة الصغيرة الديمقراطية المتمدنة » فى الشرق الأوسط يحيط بها بحر الكراهية العربية الذى يريد تهديمها وإلقاء أهلها فى البحر . بعد هزيمة العرب فى حرب حزيران 1967 فبرك المجهود الإعلامى الصهيونى - الغربى صورة الجيش اليهودى الذى لا يقهر ، وسط بحر التخلف العربى وملوكه وديكتاتورياته العسكرية . سرعان ما رصعت صورة الإسرائيلى الشجاع بصورة الاسرائيلى المبدع ، فانهالت جوائز التقدير الأدبى على الكتّاب الإسرائيليين واليهود : جوائز نوبل لعجنون وباشفيتز ، جوائز الكتاب الأوروبيين لآرثر كوستلر ، جائزة السلام لمناحيم بيغن وللعربى الوحيد الذى سلم بدعاوى الصهيونية دون نقاش ، فكان صهيونياً عربياً مثلما يوجد صهاينة انكليز

وفرنسيين وروس دون أن يكونوا يهوداً . هكذا تطورت شخصية الإسرائيلى من محاصر إلى منتصر إلى مثقف . لم يكن اليهود فى يوم من الأيام ولا فى أرض ما شعباً زراعياً فتمت فبركة صورة اليهودى المزارع . كذلك فإن القادمين كلهم لا يعرفون لغة البلاد ، فجرى حجزهم بعد وصولهم بغية تعليمهم لغة يجهلونها للسكنى فى أرض لا يمتون إليها بصلة . إن تلفيق هذه القومية معجزة من معجزات الإعلام الغربى والإرهاب الصهيونى أيضاً . لأنه إذا تجرأ صحافى أو أكاديمي ونوّه مثلاً بأن اليهود يسكنون فى أرض ليست لهم ، أو سخر من فكرة هجرة قوم إلى أرض ولغة لا يعرفونهما ويضطرون إلى دراسة كل شيء عنهما، أثيرت فى وجهه عاصفة هوجاء من الانتقادات والاتهامات تؤدى إلى اعتزاله الحياة العامة والعيش فى زوايا التقاعد والبطالة . إن الفكر والضمير الغربيين مرتهنان تمام الارتهان للصهيونية . وكل مسٍ بها يعد لا سامية نازية .

إن الصنعة والصناعة ليستا ، فى المجال القومى ، عملاً توليفياً أو تركيبياً فقط ، بل يمكن تسخيرهما لفك المعطى الطبيعى أيضاً . والقومية العربية منذ الخمسينات

ـ أى الثورة الناصرية تحديداً ـ إلى اليوم تتعرض لعملية تفسيخ أدت إلى بذر الشك فى كل عنصر من عناصر وجودها ، دون أن يجرؤ أحد على الجهر بإنكارها جملة . ولكن المحصلة الواقعية لوجود هذه العناصر جاءت صفراً أو قريباً منه . وسأقتصر على سرد ما صار متعارفاً عليه بأنه العناصر الكلاسية لتشكيل الأمة حسب التعريف الستالينى الشيوعى . فهذا التعريف يذكر أن الأمة تحتاج لكى تتكون إلى لغة وأرض وثقافة وتاريخ واقتصاد ـ ويلحق البعض بهذه العناصر المقولة الفرنسية بضرورة توافر الإرادة المشتركة . وإذا كانت أدبيات الوحدة منذ الخمسينات قد استفرغت جهد المفكرين العرب فى إثبات توافر هذه العناصر لدى الأمة العربية ، مما يوجب تحقيق الوحدة بين أقطار الأمة العربية بإنشاء الدولة القومية الاشتراكية للأمة العربية ـ فإننى فى ما تبقى من البحث سوف أعرض أنواع التفنيد التى تعرض لها كل عنصر من عناصر الوجود القومى . توصلاً إلى نفى الوجود القومى العربى فى النهاية ، وإبراز بطلان الدعوة إلى الوحدة العربية .

اللغة العربية، موجودة بلا انقطاع عبر التاريخ على

الأقل خلال الخمسة عشر قرناً الأخيرة . وهى أبرز وأمتن الروابط القومية بين العرب . ولكنها لم تكن أمراً مسلماً به كلغة قومية فى التاريخ الحديث . فقد أنكر قيمتها العثمانيون وحاربوها فى مطلع هذا القرن . وحين احتلت تركيا لواء الاسكندرون وديار بكر من الأراضى السورية منعت استعمالها . كذلك فعلت إيران مع عرب الأهواز . كذلك فعلت الحبشة مع عرب اريتريا والصومال . وقد خاضت فرنسا حرباً شعواء استغرقت ما يقرب من قرن من الزمان بين منتصف القرن التاسع عشر وما بعد منتصف القرن العشرين ، حتى استطاعت دول المغرب العربى أن تنتزع حقها فى استعمال لغتها القومية . وكانت حملة التعريب فى الجزائر ثمرة من أكبر ثمار حرب التحرير الوطنى الجزائرية . مما يدل على أن استعمال اللغة رهن بقرار سياسى . ومع ذلك فإن هذه اللغة لم تعدم فى يوم من الأيام طاعناً فى حقها فى الحياة أو أهليتها فى الاستعمال ، وداعية إلى استبدال غيرها بها . والدعوة تتم باسم التحديث : العربية لغة متخلفة لا تصلح للعلوم مثل بقية اللغات الحية . وهناك من يطعن فى وضع العربية

من حيث انقسامها إلى عـامية وفصيحـة ـ كأنها بـدع فى هذا بين لغات الأرض قاطبة ! وهنـاك من يأخـذ تعدد العـاميات القـطرية دليـلاً على تفـرع العربيـة إلى لغـات مثلما تفـرعت الـلاتينيـة إلى لغـات . وهنـاك من يجمـع هـذا الخليط كله ليقـول إن العرب ليس لهم لغـة . وبمـا أن هـذه الآراء كلهـا تـرمى إلى مـآرب سيـاسيـة فى النهـايـة ، فيمكن القـول باطمئنان إن الطعن على اللغة العربيـة قرار سيـاسى مثلما أن استعمالها وإصـلاحها وتـطويرهـا وتعميمها فى كـل مجالات العلم والحياة إنما يتم بقرار سياسى .

الحضـارة والتاريـخ العربى الإسـلامى ، لا يستطيـع أحـد إنكارهمـا أو تجـاهـل معـطيـاتهـا . ولكن تبـين أن من السهـولة بمكـان إنكار دور العـرب فى تـاريخهم ، وتجـاهـل معطيات الحضارة العربية . فأبسط مـا يقال إن دور العـرب فى السياسة العـالمية قـد انتهى بنهايـة الخلافـة الأمويـة وقيام الخـلافة العبـاسية عـلى أكتاف الفـرس أولاً ثم الأتراك بعـد ذلـك . كـذلـك يمكن تقليص الـدور الحضـارى العـربى بالقول إن أكبر مآثـر العرب أنهم نقلوا الفلسفـة اليونـانية إلى لغتهم وحافظوا عليها من الضياع إلى أن تفضلت أوروبا

بالاستيقاظ فتسلمت التراث اليونـانى الهلينى وطورتـه . ثمة نـوع آخـر من التشـويـه للتـاريـخ العــربى بقسمـه إلى سنى وشيعى وجعله يدور على الصـراع بين هـذين القطبـين دون التوصل إلى نتيجة تذكر . ونوع ثـالث من التشويـه يزعم أن معـظم عبـاقـرة هـذه الحضـارة من فـلاسفـــة وعلماء وقـواد وشعـراء ليسوا من أصـل عربى ، فيـذكر مثـلاً أن أبا نـواس فـارسى وابن سينا تـركمانى وابن مـاسويـه آرامى لإثبات أن العـرب لم ينجبوا أحـداً من عباقـرة « حضارتهم »! ولكن لا يخـطر لأحد أن يـطبق المقياس ذاتـه على الـولايـات المتحـدة مثـلاً ، حيث ينبغ الأمـريكى الألمانى والأمـريكى الـطليـانى والأمـريكى الصينى والأمريكى العـربى ، ثم يعتبـر الجميـع أمريكان مثلما كان النوابغ المسلمون يعتبـرون نتاج الحضـارة العـربيـة عـلى اختـلاف أصــولهم ـ لا يشـذ عن ذلــك إلا العباقرة اليهـود . فهؤلاء تتولى الحـركة الصهيـونية فصلهم عن مجتمعـاتهم لتزعم أنهم نتـاج العبقريـة اليهـوديـة ، كـما فعلت بابن ميمون ومـاركس وفرويـد واينشتاين . علماً بـأن العبقـرية الفـرديـة ليست بـذات أهميـة فعـالـة دون الإطـار الثقافى والمعرفى الـذى تبدعـه أمة من الأمم بكـامل طـاقاتهـا

الروحية والعقلية . ومع ذلك تهمل الطاقة العقلية والروحية عند العرب لصالح منهج تفتيتى يعزو إحدى الميزات إلى إقليم وأخرى إلى أصول غير عربية وثالثة إلى الترجمة . . الخ .

وفى النهاية لا يبقى للعرب من تاريخهم إلا الانقسامات الطائفية ، والفتن الطبقية . والصراعات الإقليمية ، والتأثرات بالثقافات الأجنبية ، وتقليد المجتمعات الفارسية والبيزنطية ثم الفرنسية والانكليزية . والميل بالتاريخ وتصنيفات الحضارة نحو نزعة من هذه النزعات ليس أكثر من قرار سياسى يتخذه الباحث بحسب معتقداته . كما أن كتابة التاريخ العربى قرار سياسى يتوقف على نزوع الباحث : وقد شاهدنا فى العقدين الماضيين منهجين متقاربين نسفا التاريخ العربى من أساسه . فمن المعروف أن الخلافة العباسية فى أسوأ عصور التسلط التركى ظلت تمثل الأكثرية العربية الصامتة والمنتجة فى سوريا والعراق وشبه الجزيرة العربية ، ناهيك عن الدور الخلّاق الذي لعبته الخلافة العربية إجمالاً خلال القرون الأربعة الأولى للهجرة . ومع ذلك ، فباسم

الصـراع الطبقى جـرى تمجيد كـل الحركـات المتمـردة عـلى الخلافة بدءاً من فوضـوية الخـوارج ، مروراً بـالانتفاضـات الفـاقدة لأى تنـظيم أو دعم شعبى التى يقـوم بهـا الأئمـة ، وانتهاء بثورة الزنج بـل وبغزوات التتـار . وهذا المنهـج ذاته يجـرى تـطبيقـه عـلى الصعيـد الفكـرى ، فيتم رفض الخط الفكرى الذى أنتـج للخلافـة قوانـين نظمت حيـاة شعوبهـا لألف عام وشؤونهم الروحية أيضاً . ويتهم هـذا الخط بأنـه ثابت أدى إلى الجمود والانحـطاط ـ ويعاد الاعتبـار لمفكرين لم يمـارسوا أى تـأثير فى تـاريخ الفكـر والحياة العـربيين . إن هذه المناهج كلها يتم اختيارها وتطبيقها بقرار سياسى .

ولئن كانت الخصائص الثقافية الأساسية فى التكـوين القومى قد تعرضت إلى هذا المدى من التصرف والتشـويه ، علماً بـأن وراءها تـراثاً نـاهيك بـه من تراث ؛ فـما قولـك فى عـاملى الأرض والاقتصـاد ، وهمـا أكـثر تعـرضـاً للتقسيم والمنازعة والدفع والرد ؟

هــل للعــرب أرض قــوميــة ؟ وإن وجــدت فــما حـدودهـا ؟ من أين تبـدأ و كيف تنتهى ؟ فـإن اعتبـرنـا أن الأرض القومية هى الحيز الذى تـوضع العـرب عليه تـاريخياً

فمن هم العـــرب ؟ ألم نتفق عـــلى أن العـــربى ـ فى العصـــر الحـديث ـ هو كـل من ينحدر من أبـويـين عـربيـين ويتكلم اللغـة العربيـة وينتمى إلى تراثهـا ويلتزم أهـدافهـا ؟ فكيف نصنـع بدعـاوى الدول المجـاورة ، إذ لا تكاد تـوجـد دولـة عـربية واحـدة ليست فى نزاع مـع جيرانها من غـير العرب ؟ إن القضيـة مع الآخـرين مـطاطـة جـداً . فقـد مضى وقت كان الشاه خـلاله يـدَّعى أن حدود إيـران تبدأ من بغـداد ، من مسيل الفرات . ومـاذا نصنع بـالأقليات القـومية كـالتى نراها فى جنـوب السودان أو فى قبـائل البـربر التى تنتشـر على أطراف الصحراء الإفريقية وفى أعالى الجبال ؟ .

وقـد يمضى المـرء بـالممـاحكـة إلى أبعـد من ذلـك ، فينـاقش فى الحدود الإقليميـة للكيانات العـربيـة القـائمـة ، ومشاحناتها بين بعضها بعضـاً . فقد شكلت واحـة البريمى ذات يـوم مصدر احتكـاك بين أعـرق دولتين فى العـروبـة : السعودية والكويت . كذلـك الأمر فى الحـدود بين الكـويت والعراق ، ومصر وليبيا . . والمغرب والجزائر . . الخ .

ثم مـاذا نقـول فى إســرائيـل ؟ ألم تكن فلســطين فى الصميم من أرض العـرب القـوميـة ؟ وسـواء سلمنـــا أم لم

نسلم بوجود الصهاينة على أرضنا القومية ، ما الذى يمنع قوماً آخرين أن يغلبونا على قطعة أخرى من الأرض ويدّعوا أنها أرضهم وحقهم وإننا إذا دافعناهم عنها نكون من الباغين ما دمنا نهزم أو نتخاذل ؟ وأية أمة ـ ما عدا الجزيرة البريطانية والمقيمين فيها ـ لم تتعرض أرضها القومية للشد والمط والتقليص والتقصير ؟ إن الأرض القومية أيضاً معطى طبيعى لكن المحافظة عليها والتشبث بحدودها أو تحديد أبعادها قرار سياسى . والقرار الأهم منه هو تطويرها واستغلالها . فالمنطق الغربى لا يسلم لأمة بحقها الطبيعى فى أرضها ، ويعطى هذا الحق لمن يحسن تطوير الأرض واستغلال مواردها الطبيعية وعلى هذا الأساس نجد برتراند رسل وكثيراً من المفكرين الغربيين يعطون الحق للأنكلو سكسون فى استيطان أمريكا بدعوى أن الهنود الحمر لم يكن فى وسعهم استغلالها حق الاستغلال ، فجاءت هجرة الانكليز لخيرهم وخير الإنسانية ! وبالمعنى نفسه يجادل الصهاينة فى حقهم بالهجرة الأولى بدعوى أنهم استصلحوا أراضى أميرية كانت بوراً فى عهد العثمانيين والأنكليز ، وأما اقامتهم وتوسعهم فيجادلون عنهما بأنهم

أقاموا أكثر المجتمعات « تقدماً » فى الشرق الأوسط . بل إن الولايات المتحدة استخدمت المقولة ذاتها ضد رفع أسعار البترول العربى ، وكانت الدعوى آنذاك أنه ليس فى وسع دول النفط أن تستهلك عائداتها أو تستخدمها فى تطوير مجتمعاتها مهما فعلت - وبذلك كانت تتجاهل عامدة حاجة بقية الشعوب العربية غير النفطية إلى أموال النفط .

وهنا نصل إلى بيت القصيد فى كل هذه المناقشة : التكامل الاقتصادى العربى وضرورته من أجل الوحدة العربية المنشودة . فكلما أثير موضوع الوحدة وجد من يطرح موضوع الاقتصاد المشترك على أنه عائق إذا لم يكن متوافراً . ولعمرى فإن السؤال عن أسبقية الوحدة على التنسيق الاقتصادى أو العكس صار أشبه بالتساؤل عن أسبقية البيضة أو الدجاجة . فكل تنسيق اقتصادى مهما بلغت درجته أن يكون ، بين التعاون البسيط والوحدة الكاملة ، إنما يتم بناء على قرار سياسى . وكذلك القطيعة الاقتصادية وكل أشكال التباعد أو الاستقلالية .

من كل هذا نجد أن مقومات الأمة لا تكفى لإيجاد الأمة . فالصنع الذى يجعل من عناصر تكوين الأمة وسيلة

لوحدتها وازدهارها يمكن أن يجعل من هذه العناصر ذاتها وسيلة لتفكيكها وتفسيخها وضرب عناصرها بعضها بالبعض الآخر لتكون محصلة وجود الأمة صفراً . أما القول بأن العناصر الطبيعية المتوافرة لأبناء الأمة العربية كافية بذاتها لكى تحقق لهم وجودهم القومى ، فهو ليس أكثر من دعوة إلى الكسل والتعامى عن قدرة العدو على تفسيخ تلك العوامل الثقافية والمادية و إلغائها لذلك ، فإننا إذا أردنا للعروبة أن تتحقق على أرض الواقع فلا بد من قرار سياسى .

القِيَادَة النَاصِرِيَّة القَوْمِيَّة
بَعْدَ عَشْرِ سَنَوَاتٍ مِنْ غِيَابِهَا



تبـدو الصورة السيـاسيـة والعسكـريـة والفكـريـة فى الوطن العربى خـالية من أى ظـل لزعـامة الـرئيس الراحـل جمـال عبد االنـاصر . كـأنه لم يـأت إلى دنيـا العـرب فيـطرد جيوش الاستعمار البـريطانى والفـرنسى ، ويهز العـروش . ويفتح أبواب الأمل لأمة تخلى عنها التـاريخ فغـطت ألف عام فى سبات العصور !! .

المشككون التقليديون فى رسـالتـه ـ وهم يقـولـون : « زعامته »ـ يتخـذون هذه الـظواهر دليـلاً لا يـدحض عـلى الخـطأ المطلق فى غـاياتـه ووسائله . الأسـطوانة القـديمة مـا تـزال صالحـة لإعادة المعـزوفة : قيـادة فرديـة تجريبيـة ، بلا نـظريـة ثـوريـة ، ولا تنــظيم شعبى . ولكن مـاذا بقى من زعـامـات العـالم الثـالث التى واكبت مسيـرة الـرئيس جمـال

عبد الناصر ؟ أقوى وأرسخ الزعامات التى تعتمد على تنظيم ثورى كانت زعامة ماوتسى تونغ فى الصين . . وقد امتد به العمر ليستقبل الرئيس نيكسون بروح تجريبية تماماً. فإن كان قراره ديكتاتورياً فإن استمرار توجه الصين نحو الولايات المتحدة بعد موته يدل على قبول القيادات به ، وإن كان ديمقراطياً فالقرار بالتقرب من أمريكا جماعى ولا يستند إلى غير الروح التجريبية . فأمريكا ما زالت هى أمريكا : الدولة التى تجعل من غطرسة القوة وسيلتها لنهب الشعوب وعرقلة تقدمها ، والسعى الى تفسيخ تماسكها . وما زالت جزيرة تايوان بملايينها السبعين ، وثرواتها التى هربت من أرض الصين ، وصناعاتها المتقدمة ، أبعد عن متناول الصين من الأراضى العربية المحتلة بالنسبة للعرب . فهل هذا دليل على إخفاق زعامة ماوتسى تونغ أم خطأ رسالته ؟ إن الجواب عن سؤال بمثل هذا الحجم يعتمد على تقديرنا لما بقى فى الصين ولها من ماوتسى تونغ .

إن المقارنة بين الوضعين العربى والصينى كانت واردة في ذهن الرئيس جمال عبد الناصر بدليل أن آخر كتاب كان

يقرأه هو عن ماوتسى تونـغ . فحتى وفاة الـرئيس القائـد فى أيلول 1969 كانت الثورة الصينيـة نموذج العـالم الثالث عن الثورة الظافـرة . ولم تكن الثورة الفيتنـامية إلا مثـالاً لتحدى شعب صغير لقوة عـظمى . فقد استـطاع ماوتسى تـونغ أن يحرر الصين ويفرض عليها نظاماً مـوحداً . ولكن الصـين لم تكن مستعمـرة ، إذا استثنينا بعض المـوانىء . وهى فى هـذا المضمار تختلف اختلافاً جذريـاً عن البلاد العـربية التى كـان فى كـل قطر منهـا تقريبـاً جيش أجنبى . كما أن الصـين قبـل ماوتسى تونغ وخلال ثـورته كـانت صيناً مـوحدة لم تجـزأ إلى دويـلات مستـقـل بعـضهـا عـن البـعض الآخـر تمـام الاستقلال ،على نحوما هي عليه البلاد العـربية . وهذا فـرق آخـر يفرض تغييـراً جذريـاً فى استراتيجيـة أية قيـادة عربيـة تسعى إلى الـوحدة . ففى حـين أن الجيوش الغـربية كـانت تجعل من مبادئها الثابتة ألا تحارب على البر الآسيـوى ، وأن تكتفى باحتلال الموانىء وتوسيـع رقعة نفـوذها إلى الـداخل بوسائل اقتصادية وسياسية ـ كان أيضاً من مبادئها الثابتـة أن تتوغل فى الأرض العـربية وتقيم عليهـا القواعـد العسكريـة بـالاعتماد عـلى السلطات المحلية أو بـدونها . يساعـدها فى

ذلك أن الحدود القطرية ، وإن كانت مصطنعة ، فإن لها أساساً تاريخياً وطبيعياً إلى حد كبير . فما عدا بلاد الشام ، سورية الطبيعية ، نجد أن بين كل قطرين صحراء عازلة يتنقل فيها أعداد قليلة من البدو. ومن ناحية أخرى فإن الواحات المسكونة التى تقام فيها المدن حول الأنهار كان لها تاريخ سياسى تشكلت خلاله إمارة عربية فى وقت أو آخر . ثم إن وجود فرنسا فى سورية ولبنان أضعف من وحدة المقاومة العربية . فالسوريون إذا قاوموا الفرنسيين اضطروا إلى شىء من الملاينة مع بريطانيا ، مما شكل سوابق قطرية فى الانفراد بسياسة خارجية قطرية هدفها المحافظة على الكيان ، سواء فى البلاد التى استقلت أو فى البلاد التى تحكمها سلالات ، فضلاً عن الأقطار المستعمرة . وفيما عدا العراق والسعودية والكويت كانت الأقطار العربية شديدة الفقر لاعتمادها على الزراعة البدائية ، كما أن عائدات البترول لم تكن وفيرة حسب أسعار الخمسينات والستينات ، وإن كانت قلة السكان تجعل تلك الأقطار فى وضع متميز بصرف النظر عن إبقاء الشعب فى حالة الفقر .

يتضح من هذا أن الوضع الجغرافى ـ السياسى يضع ماوتسى تونغ فى موقع أفضل بكثير من موقع عبد الناصر . ففى حين كان ماوتسى تونغ يواجه جيشاً محلياً فى روحه وإعداده ، وقومى صينى فى أعمق أعماقه ، كان عبد الناصر مضطراً إذا ما تطلع خارج مصر إلى مواجهة جيوش احتلال أجنبية تتفوق عليه فى كل شىء . وكان وجود اسرائيل خير ضمانة لكيانات المشرق ضد تواجد الجيش المصرى فيها أو على حدودها . لكل هذا اضطر الرئيس جمال عبد الناصر إلى أن يضرب القدوة بنفسه وبلده ، فطرد الإنكليز وحرَّض الشعوب العربية على الثورة واضعاً إمكانات مصر المستقلة فى خدمة الثورة العربية . وكانت فرضيته الأساسية أن التحرير مقدمة للوحدة . وما زلت أذكر فى أعياد الجلاء عن سوريا خلال دولة الوحدة أن الشعار الذى كان يكتب بالكهرباء على قمة جبل قاسيون غربى دمشق : « جلاء فوحدة » . وكنت آنذاك فى مقتبل الشباب أشتغل محرراً فى صحيفة « الوحدة » ، فعلمت أن الشعار وضع بإيعاز من الرئيس .

أوحى اشتعال الثورة فى العراق والجزائر أن العرب

استجابت لنداء قائد نذر نفسه وبلده لتخليصها و إعادتها أمة واحدة الى جادة التاريخ الحديث الذى يبدأ بإقامة الدولة القومية . وقد قوَّى هذا الإيحاء أن الرئيس جمال عبد الناصر ، منذ خلافه مع نورى السعيد حول الحلف المركزى . وفى حرب السويس سنة 1956 ، خاطب العرب كلهم . فكان أول رئيس فى التاريخ الحديث يخاطب العرب كأمة . وقد ساعده هذا الحوار على إيقاظ الشعور الكامن بالتضامن القومى : فلم تعد « القومية العربية » كلمة فى الكتب المدرسية بل أصبحت سلاحاً إلى جانب السلاح المقاتل فى بغداد وعدن والمغرب العربى . إن الثائر القومى حين ينزل إلى الشارع مستشهداً يعلم علم اليقين أن ثواراً آخرين فى أماكن نائية من هذا الوطن الشاسع يقاتلون للغاية ذاتها وللهدف نفسه . إن الفداء ليس عملاً فردياً بل قرار جماعى ضمنى يوقن الفرد من خلاله أن القضية سوف تستمر بعده . فحقق بذلك الرئيس عبد الناصر الأولوية الثانية فى تاريخ هذه الأمة ، وهى أنه عمل على إعادة تسييس العرب بعد أن طردهم عن السياسة ، الفرس والأتراك ثم الاستعمار والحكومات

المحلية التابعة . ومع إعادة التسييس أتى إشعار العربى بأنه صانع مصيره والشريك فى سلطة الدولة القومية المقبلة لأنه حامل رسالة ومتصل عن طريقها بالقائد الذى يخاطبه بنفسه . وهذا شرط الديمقراطية الدائم فى نظر العربى . وقد زاد عمق هذه الديمقراطية فى نفس العربى أن القائد خاطب العرب من وراء حكوماتهم فأسقط حاجز الخوف التقليدى من سلطة لا تمثلهم لأنها إما أجنبية أو قمعية تفرض نفسها وتعمل لمصلحتها . وفى حين أن كل الحكومات الإقليمية كانت تغرق شعوبها بمشكلاتها المحلية ، أو بمشكلات التحرر «العالمى» ، كان عبد الناصر القائد العربى الوحيد الذى يجابه الأمة بمشكلاتها القومية ، مناقشاً بالعلن بقية الزعماء العرب حول أفضل الطرق لتحقيق المصلحة القومية . وبذلك غرس فى الوعى القومى طريقة ومنهجاً لتحديد مفهوم للمصلحة القومية يقوم على معرفة حسابية بالتنازلات أو بالتضحيات الإقليمية المطلوبة فى سبيل ذلك. فأسس الأولوية الثالثة فى تاريخ هذه الأمة .

هذه الأولويات عن وحدة النضال القومى ، ووضع

إمكانيات القطر المصرى كلها فى خدمة المعركة ، وتسييس العرب ، وديمقراطية الاتصال بين القائد وأمته ، وجعل المصلحة القومية للوجود العربى فوق أى اعتبار قطرى أو مكسب مرحلى - هذه الأولويات كلها شكلت بذور إيديولوجية عربية صرف تنمو فى النفوس وليس فى السطور ، وعبر الممارسة اليومية وليس فى بطون الكتب . وهى إذا ما جمعت إلى الاشتراكية الإصلاحية المتدرجة ، والإصلاح الزراعى ، والسد العالى ومشروعات التصنيع تؤلف موضوعة إيمان فى نفس الفرد العادى تبلغ درجة الرؤيا التى يموت من أجلها المرء ويحيا .

هذه الرؤيا حيل بينها وبين الانتلجنتسيا العربية بحجاب صفيق من الهوى بأنواع شتى : هوى حزبى ، أو إقليمى ، أو طائفى ، أو طبقى . الخ . إن المثقفين العرب لم يبصروا الزعامة الناصرية إلاّ من خلال أضيق ثقب فى انتماءاتهم المنعزلة عن الجماهير الغفل ، ولم يرتبطوا بها إلاّ بقدر ما ترتبط مصالحهم الراهنة بسلطان الدولة فى مصر أو نفوذها فى العالم العربى وخارجه ، ولم يساندوها إلاّ إذا كانت مساندتها لهم تأتيهم بأضعاف أضعاف الخدمات

التى يقدمونها لها . كانوا يعاملونها بترفع يبلغ حد التجاهل ، وبشراهة تتجاوز حد الاستغلال ، ولم يكونوا يرون فى انقياد الجماهير العربية للزعامة الناصرية أكثر من دليل على عامية تلك الزعامة التى لا يتبعها إلّا العوام ، لذلك كانوا يمنون عليها إذا تعاونوا معها ويسوغون لأنفسهم استغلالها مثلما يستغلون الجماهير . لم يكن وراء الانتلجنتسيا العربية ماض نضالى طويل يدمجها بالجماهير ، لأن دورها المستمر منذ أيام الاستعمار وما بعد هو دور البيروقراطية التى تنفذ القرارات . تاركة زمام المبادرة بأيدى أصحاب السلطة من مستعمرين أو ضباط وطنيين أو سياسيين محترفين . وبالاختصار ، كانت الانتلجنتسيا العربية ، بأجنحتها السياسية والاقتصادية والفكرية عبئاً على الزعامة الناصرية حين أيدتها وحرباً عواناً عليها حيث اصطدمت مصالحها بها . والسبب المباشر والبسيط لتلك العلاقة الواهية هى أن تلك الانتلجنتسيا لم تمر بأية تجربة قومية . كانت انتماءاتها محلية ، طائفية أو إقليمية ؛ وكانت ولاءاتها مرتبطة بالخارج ، « بالأم الحنون» التقليدية فى الشرق أو

الغـرب . لهذا فـإنها إذا لم تنكـر عـروبتهـا أنكـرت الـواقـع العربى ، واستنكفت عن كل جهـاد لتكوين الـدولة العـربية المبتغاة ، وإذا لزم الأمر تقاوم .

كـانت الايديـولـوجيـا العـربيـة تضـع الانتلجنتسيـا العـربية فى غـربة عن الايـديولـوجيات التى تـألف . وكـان هيـاج الجمـاهـير العـربيـة يبث فى قلبهـا الـذعـر من انتهـاء دورها . فكانت تتواطأ وتكيـد للزعامـة الناصـرية عن وعى وعن لاوعى . وبالمقابـل ، لم تكن الزعـامة النـاصريـة تولى أولئـك المثقفين كبـير اهتمام أو رعـايـة أو احتـرام : إمـا أن يكـونـوا فى الصف أو لا يكـونـوا . ولئن كـان ايـدن رأى فى الرئيس جمال عبـد الناصـر هتلر جديـداً ، ورأى فيه دالاس عميلاً للشيطان ، فإن المثقفين العـرب رأوا فيه شيئـاً يتراوح بين السلطان عبد الحميد وأتاتـورك ، وأحيانـاً بسمارك . لم يـروا فيه تيتـو ولا ماوتسى تـونغ ولا حتى كـاسترو ، فضـلاً عن لينين ـ مع أن الزعماء الأحياء من هؤلاء كانـوا يرون فيـه نـداً وأكثر من نـظير لأن رسالتـه التى ندب نفسـه لهـا كـانت تفوق المهمات التى أنجزوها ، لما يعلمون من تعقيد الوضـع العـربى الداخـلى وشراسـة الأطماع الصهيـونيـة واستمـاتـة

الغـرب فى سبيل النفط العـربى باحتكـاره واحتكار عـوائـده أيضـاً . إلاّ أن المثقفين العـرب لم يكونـوا يعلمون ، فكـانوا يطالبون جمال عبد الناصر بالمستحيل :

الـوحدويـون (وأنا من بينهم)، كـانوا يتسـاءلون : ماذا يعيق عبد الناصر من الوحدة الفورية ولو بالسلاح .

الاشتراكيون ، لن يؤ يـدوه إلا إذا قام بتهـديم كامـل البنية التحتية وتحويلها إلى قطاع عام .

البـورجـوازيـون يـريـدونـه حـاميـاً لحـريـة العمـل والتجـارة ، ويتخوفـون عـلى الـدوام من خـطواتـه المقبلة . (كـان ضيـاع أسهم الشـركـات المؤ ممـة فى سـوريـة سببـاً لانقلاب الطبقة ضده) .

الشيـوعيـون ، لا يؤ يـدون دولـة الـوحـدة إلاّ إذا انحـازت إلى المعسكـر الاشتـراكى قلبـاً وقـالبـاً . وحجتهم الـظاهـرة هى أنـه ليس فى وسعهـم تـأييـد دولـة بـلا أيديولوجية ، أى دولة بوليسية . لقد اصـطدموا بـه منذ أول ظهـوره ، واضطروا إلى تـأييده وهم فى سجـونـه . لكنهم لم يعترفوا له بحق الزعـامة هم والاشتـراكيات المحليـة إلاّ بعد وفـاته ! فعنـدها استفـاق الجميع الى أن الاتحـاد السـوفيـاتى

والأفكـار الاشتراكيـة والتحرريـة لم تدخـل المنطقـة إلاّ تحت المظلة الناصرية . فقد حماها أكثر مما حمته !

ومـع كـل تلك الانشقـاقـات ، كـان ينشـأ وينمــو ويتعاظم حس بالانتماء هو مصـدر الفرح والحمـاسة . كـان هذا الحس ينبع من أدنى الطبقات وأعرض القواعـد الشعبية فيلفها بحركـة صاعـدة . كان الانتـماء العربى عـامل صهـر لمخلفـات التاريـخ العربى الـطويل ورواسبـه . فجأة تـطهر التاريخ العربى من شروخه ، وتفجرت الطبقات والـطوائف والأحـزاب من داخلها بحـركة نـابذة تـرمى من يتخلف عن اللحـاق بالـركب ، فيما تتكتـل جميعها بـاتجاه القـائد الـذى أعلن قـدوم فجر الخـلاص من إسار الانتـماءات الضيقـة : كلنا عرب أمـام قانـون واحد وفى خـدمة قضيـة واحدة تعلو عـلى الجميـع ، هى تحـريـر الأمـة وتـوحيـدهـا . إن جمـال عبـد الناصـر قد ورث مصـر اقطاعيـة ، وعالمـاً عربيـاً قبلياً طـائفياً مستعمـراً ، وسياسيـين ضيقى الأفق يرون مـواضع الخـلاف ولا يرون مـواطن الاتفاق. كـانت العروبـة يتيمة على موائـدهم ، فتبناهـا جمال عبـد الناصـر وأعطاهـا مصر قـاعدة لهـا ، وباسمهـا ، ومن أجلها جهـد ان يخلق النـظام

من الفوضى ، والوحدة من التفرقة ، والقومية من الإقليمية ، والعلمانية من الطائفية - وهذا جهد الفنان العبقرى . وقد كان عبقرياً فى قدرته على قلب نقاط الضعف إلى نقاط قوة : استغل حب المصريين لمصر كى يحررها ، واستغل حب الفلاح للأرض فملَّكه إياها ، واستغل مصالح الغرب فى المنطقة العربية ليجعل منها سلاحاً يهدده بها ، واستغل حتى عدم وجود حزب قوى يناصره ليشعر الرجل العادى بأنه يعتمد عليه مباشرة وأن العرب كلهم حزبه مهما تباعدت أقطارهم أو تآمرت حكوماتهم . وكان هذا كله يذكى حس الانتماء عند الجماهير . وكانت قيادة جمال هى القدوة فى الانتماء العربى حين لم تكتف بتحرير مصر بل الجزائر وعدن والسودان ، فضلاً عن مساندتها لثورات العرب فى العراق والأردن والمغرب العربى واليمن . وكان القائد يخاطب جماهيره بلغة الكلام اليومى فلم يتعال عليها بالمصطلحات الثورية .

هل زال هذا كله بفشل عبد الناصر فى مشروعه الوحدوى ، ثم بهزيمته واستشهاده ؟

وقد تحجب الظلمات المتكاثفة عنا الرؤ ية فتدفعنا

إلى الـزعم بأن تـراث عبـد النـاصـر قـد بـاد . لكن الـدول العـربية التى كـانت مستعمرة واستقلت بمسـاندتهـا ما تـزال مستقلة ، كـما أن إبقـاء حـد أدنى من التضـامن العـربى فى المعـركة القـومية إرث نـاصـرى ، وإيمـان الـرجـل العـادى بعروبته وشعوره بالغـربة إزاء الايـديولـوجيات التى يستلب باسمها إرث نـاصرى ، كـذلك هـو إرث ناصـرى الاعتقاد بأن قوة العـرب فى وحدتهم ، وأن بتـرول العرب للعـرب ، وأن ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة .

يميل البعض إلى تحميل القيادة الناصـرية مسؤوليـة ما حل بالعرب بعد وفاة القائد جمال عبـد الناصـر . ويزعمـون أن الـوضـع العـربى الـراهن ليس أكـثر من ذيـول وتتمـات لسياسات الرئيس جمال عبد الناصر فى مصر والـوطن العربى والخارج . إن فى هذا الـرأى انتقاصـاً من عظمـة الرجـل . وتنـاسياً للوضـع العربى المتنـابـذ ، وتغـاضيـاً عن شـراسـة الصهيـونيـة التـوسعيـة وتكـالب المصـالـح الأمـريكيـة فى المنطقة ، وإهمالاً لتطورات الـوضع السيـاسى العالمى بعـد انـدحار الـولايات المتحـدة فى الهند الصينيـة وتحـالفهـا مـع الصين ضد الاتحـاد السوفيـاتى ، وفشل المجمـوعة الأوروبية

فى تكـوين كتلة ذات وزن سيـاسى وعسكـرى يعـدل وزنها المالى والصناعى .

لنبدأ باستعـراض مظاهـر التردى فى الـوضع العـربى منـطلقـين من أكـثر الأمـور ، بعـد هـزيمـة 1967 ، إثـارة للحزن : الصلح المنفرد بـين السادات وبيغن ، ممـا أدى الى انسحـاب مصر من المعركة ، يقول المعتـرضـون إن الـرئيس عبد الناصـر بدأ سيـاسة التنـازلات تجاه الـولايات المتحـدة والعدو الصهيونى ، بقبوله لمبادرة روجرز ؛ ممـا أدى بسلسلة من التعديلات إلى مبادرة السادات .

ولكن فى الـوسـع الاحتجـاج ضـد هــذا الاتهـام أن مضمون القيادة الناصرية يعتمد اعتماداً مباشـراً على مفهـوم المصلحـة القوميـة ووحدة المصـير . وبالتـالى فليس فى وسع القيادة الناصرية أن تبحث عن حل منفرد لمصر مع إسـرائيل والولايات المتحـدة . لأنها تكون بـذلك قـد ناقضت نفسهـا وتخلت عن مضمون زعامتها وأساسها الجماهيرى المتين .

أما تهمة احتواء الثورة الفلسـطينية فـإن القائـد الذى استشهـد وهو يحـاول تخليصها من بـراثن الأنظمـة ، يعرف حق المعرفة الحدود والمدى اللذين يجب ان يتوافرا للثـورة كى

تحافظ على بقائها فى غابة الكيانات وفى الوقت ذاته تحتفظ لنفسها بحرية القرار والحركة . يلحق بذلك تهمة احتواء الحركات الثورية العربية والتنظيمات المجسدة والتابعة لها . إن مواقف القيادة الناصرية من هذه الأمور يجب أن تناقش من زاوية الاستراتيجية الوحدوية التى تبنتها القيادة ، وليس من زاوية التنظيمات ومطالبها الملحة أو المتسرعة . ثم ، لماذا يكون للاتحاد السوفياتى حق ضبط مواقف الحركات الثورية فى العالم ، ولا يكون للقيادة الوحدوية مثل هذا الحق فى وطن ممزق مفتت من الداخل والخارج ! إن عدم انصياع التنظيمات لتوجيهات القيادة أدى فى النهاية الى حالة التشرذم القريبة من الضياع . لأن تضارب الأهداف المرحلية يجعل محصلة القوى قريبة من الصفر .

وهذا كله يفضى بنا إلى قضية بالغة الجوهرية فى محاكمة القيادة الناصرية ، وهى قضية الديكتاتورية والديمقراطية فى مسلكها وهيكلها . لتحديد حجم الاتهام ، ينبغى أن نتساءل : ما هى التقاليد والمؤسسات الديمقراطية السائدة فى مصر والأقطار العربية ، التى قضى

عليها الرئيس جمال عبد الناصر ؛ وما هى الأنظمة والمؤسسات الديمقراطية التى نشأت فى مصر والعالم العربى بعد وفاته وانحسار ظله ؟ إذا كان الجواب أقرب إلى النفى فى الحالتين يبقى علينا أن نناقش تلك القيادة الحساب على هدى أهدافها المعلنة وإنجازاتها المتحققة ، لأن كل القيم والايديولوجيات ليست فى التحليل الأخير سوى وسائل لغاية واحدة هى المصلحة القومية للوجود العربى . إذ إن الايديولوجيات توجد لتوضع فى خدمة الأمة ومصالحها العليا ، فهى دليل عمل لها وليست نصوصاً مقدسة يجب أن يوضع الناس فى خدمتها لذاتها . من هذه الناحية ، فإن القائد جمال عبد الناصر أكثر إيماناً بالناس منه بالمبادىء والمعتقدات . مما يجعلنا نتفحص الغاية من اتهامه بالديكتاتورية فنجد أن الذين اتهموه كانوا ينازعونه السلطة على شعوب أقطارهم ، أى كانوا يجدونه حجر عثرة يحول بينهم وبين أن يكونوا هم ديكتاتوريين على الناس . نقول هذا دون أن ننفى عن نظامه فقدان القنوات الناظمة للاتصال بين الشعب والقيادة . ولكن إذا أخفق منتقدوه فى إيجاد هذه القنوات بعده ، فقد كان له ميزة الاحساس

بـالهدف وبث هـذا الإحساس بـين جمـاهـير الأمـة العـربيـة بحيث اعتنقت فى إحـدى لحـظات التـاريـخ هـدفـاً واحـداً موحداً وموحِداً ، وحين غاب القائد حـل محل الاحسـاس بـالهدف والعمـل من أجله ضيـاع قـومى وتفتت اجتمـاعى يشفى بـالأمة إلى هـاوية ليس لهـا قرار ، بـدلاً من أن تكون أمة متحدة فى حركة صاعدة .

الأهدافُ الحضارِيَّة
لِلأُمَّةِ العربيَّة

في هذه اللحظات الحالكة من التمزق الاجتماعى فى صورة حروب أهلية ، والتفسخ السياسى فى استعانة العرب بأعدائهم ضد بعضهم بعضاً ، والانهيار القومى الذى جعل المؤسسات الدولية ملاذاً أوحد من الاستسلام الكامل لإرادة العدو . . .

فى هذه اللحظات الحالكة يستعصم الفرد والأمة من الخور واليأس باستلهام اللحظات المضيئة فى تاريخنا العربى المجيد . ثمة لحظتان تاريخيتان يفصل بينهما ألف وثلاثمائة عام ، تفجرت فيهما تطلعات الشعب العربى بكل طاقاته ، وتجلت فيهما عبقرية القيادة العربية وحكمتها وقت الشدائد ـ قيادة الخليفة عمر بن الخطاب والقائد جمال عبد الناصر . كلاهما محرر لأمته وبانٍ لنظامها الاجتماعى . وكلاهما

أحـرز استجابـة عربيـة شـاملة بتـأييـد سيـاستـه الـداخليـة والخارجية . وكـلاهما أسهم فى صيـاغة الشخصيـة العربيـة بحيث يصـح أن ندرس سيـرة كل منهـما عـلى أنها تعبـير عن الأهداف الحضارية للأمة العربية .

1 ـ أهم ما يلفت نظر الباحث فى شخصية الخليفة عمـر بن الخـطاب رغبتـه فى أن يكـون واحـــداً من العـرب المسلمـين ، متنازلاً عن كـل الامتيازات التى يمكن أن ينـالها بشخصــه أو نسبـه أو منصبـــه . فبـإسـ لامـه ، بلغ عـــدد المسلمـين أربعـين رجـلاً . وكـانت قــريش تجتـرىء عـــلى المسلمـين بـالضـرب والإهـانـة ، فلما أسلم عمـر تحــامتـه قريش ، فما زال يستفـزها حتى انهالت عليـه بالأذى ، وهـو يقـول : « ألا يصيبنى مـا يصيب المسلمـين ؟ »[1] . وقـد هم بـالمسير فى الجنـد بنفسه مـرتـين ، الأولى عنـد فتـح العـراق والأخرى فى معركة نهاوند . وفى المرتين منعـه ذوو الرأى من الصحابة . فكان عمر يقـول : « أيها النـاس ، إنى إنما كنت كــرجــل مـنكـم حتى صـــرفـنى ذوو الــرأى منـكـم عـن

1 ـ شرح المواهب 1 / 320 ، أسد الغابة 4 / 55 .

الخـروج »[2] . وكـان مما قـالـه لـه عبـد الـرحمن بن عـوف يعـارضه « إنـه إن يهـزم جيشـك ليس كهزيمتك، وإنك إن تقتـل أو تهزم فى أُنُف الأمـر (أى فى أوله) خشيت ألّا يكبّـر المسلمـون وأن لا يشهـدوا أن لا إلــه إلّا الله أبـداً »[3]. وفى عـام الرمـادة حلت المجاعـة بالجـزيـرة العـربيـة بعـد أربـع سنـوات من المحل . فحلف عمـر لا يـذوق لحـماً ولا سمنـاً حتى يُحيى النـاس (أى ينـزل عليهم الحيـا وهـو المـطر). وكـان يقـول : « كيف يعنينى شـأن الـرعيـة إذا لم يصبنى مـا أصابهم؟ »[4] . وهـذا المـوقف يـرسّـخ معنى المسـاواة بـين الشعب والقيـادة . ويبث فى نفوس المحكـومين الصبـر عـلى المكـاره ومواجهـة الصعـاب ـ إلّا أن الأهم من ذلـك كله أن القـائد يعيش التجـربة القـوميـة ويعيهـا فى كـل مـرحلة من مراحلها فيضع الحلول المتطورة بتطورها . وهـذا يجعل نفى الاغتـراب بـين القيـادة والشعب أهم سمـات القيــادة التى ينشدها العرب .

2ـ الطبرى 4 / 237 .

3ـ الطبرى 4 / 83 .

4 ـ الطبرى 4 / 223 وابن الأثـير 2 / 273. وانظر أيضـاً طبقات ابن سعـد 1 / ٥٢٢ والريـاض النضرة 2 / 53 .

2 ـ نتبين سمة نفى الاغتراب في البيان الحكومى الذى ألقاه الخليفة عمر بن الخطاب بعد أن أخذ البيعة من العرب . قال :

« . . لكم علىّ أيها الناس خصال أذكرها لكم فخذونى بها : لكم علىّ أن لا أجنى شيئاً من خراجكم ولا مما أفاء الله عليكم إلاّ من وجهه . ولكم علىّ إذا وقع فى يدىّ ألا يخرج منى إلاّ فى حقه . ولكم علىّ أن أزيد عطاياكم وأرزاقكم إن شاء الله تعالى وأسد ثغوركم . ولكم علىّ ألا ألقيكم فى المهالك ولا أجمركم فى ثغوركم ، وإذا غبتم فى البعوث فأنا أبو العيال حتى ترجعوا إليهم »[5] .

هذه النقاط الخمس فى البيان الحكومى تتعلق بفرض الضرائب ، والخدمات العامة ، وزيادة الرواتب مع تقوية الجيش ، وتجنب المغامرات العسكرية ، والضمان الاجتماعى للمقاتلين ـ هذا الضمان الذى وجد

5ـ التجمير : إبقاء الجنود فى الجبهة مدة طويلة . والخطبة فى الخراج لأبى يوسف ص 140 وحياة الحيوان 1/ 56 .

أرق صيغة فى قول عمر « فأنا أبو العيال حتى ترجعوا إليهم » . غير أن قيمة هذا البيان فى التزام الخليفة به التزاماً حرفياً دقيقاً . إذ لم تكن وصاياه لقواد جيوشه لتعدو ما جاء فى بيانه . فقد تردد أمام فتح فارس ومصر حتى فرضا عليه فرضاً ، إذ حشد الفرس فى نهاوند كل قواهم للقيام بهجوم مضاد . كما أن عمرو بن العاص تحايل على الخليفة حتى أذن له فى التعرض لمصر ، ولم يعطه فى البداية أكثر من أربعة آلاف رجل . وكان من وصيته إلى أبى عبيدة بن الجراح فى الشام : « لا تقدم المسلمين إلى هلكة رجاء غنيمة »[6]، ومن وصيته إلى سعد بن أبى وقاص فى العراق : « . . إنك تقدم على أمر شديد كريه لا يخلص به إلّا الحق ، فعود نفسك ومن معك الخير »[7]. وحين منع أهل الرأي الخليفة عمر من السير بنفسه إلى حرب الفرس فى نهاوند أمّر على الجيش النعمان بن مقرن المزنى وأوصاه

6ـ الطبرى 4/ 54.

7ـ الطبرى 4/ 85.

بأفراد جيشه قائلاً « لا تواطئْهم وعـراً فتؤذيهم ، ولا تمنعهم حقهم فتكفرهم »[8] .

3 ـ غـير أن وصايـا الخليفة عمـر تغيـرت حـين تم لـه الفتـح فى فارس والعـراق والشـام ومصـر وليبيـا . إذ صـار عليه أن يهتم بوحدة الدولـة وتكامـل سكانها من غـير العرب وغـير المسلمين مـع العرب المسلمـين . فانصـرف إلى تنظيم موارد دولته بما يضمن استمرارها مع رضى المحكومين .

كانت الأموال العـامة عـلى عهد عمـر ثلاثـة أنواع : الـزكـاة وهى فـريضـة ، ثم الخمس والفىء وفيهـما اجتهـد عمر .

أمـــا الخمس فهـــو من غنـــائم الحـــرب . وأصله أن أسلاب المعركة تقسم خمسة أقسام يوزع أربعـة أخماسها على المقـاتلين الأحياء منهم والشهـداء . ويحمـل الخمس البـاقى الى الإمـام فيقسمـه خمسـة أقسـام للرسـول ثم ذوى قـربـاه فـــاليتـامى والمســـاكـين وأبنـــاء السبيـل (أى المســـافـرين

---

8 ـ الطبرى 4 / 232 .

المنقطعين) . وكان الرسول قال : نحن الأنبياء لا نورث . فأسقط أبو بكر سهمى الرسول وذوى قرباه ، ووزع الغنائم على ثلاثة أخماس : اليتامى والمساكين وأبناء السبيل . وتابعه عمر فى ذلك .

وأما الفىء فهو ما أخذ من العدو صلحاً بلا قتال . ويتألف من الجزية والخراج والعشر .

العشر يؤخذ من التجار غير المسلمين والذين يأتون من بلاد العدو . ولم يفرضها عمر بل كانت الدولة البيزنطية تأخذ العشر (أى 10% من ثمن البضاعة) من العرب فعاملهم عمر بالمثل . ذكر أبو يوسف فى الخراج أن أهل منبج كتبوا إلى عمر « دعنا ندخل أرضك تجاراً وتعشَرنا » فكتب عمر إلى أبى موسى الأشعرى والى العراق : خذ منهم كما يأخذون من تجار المسلمين[9] . وأعقب ذلك بأن فرض 5% على التجار الذميين . أما تجار المسلمين فكانوا يدفعون الزكاة وهى 2,5% فى العام وهى

9ـ الخراج ص 161 .

فريضة لا يعفى منها أحد . أما العشر فقد أعفى منه عمر لذمى المدين ، والبضائع التى يحتاج إليها المسلمون .

وأما الجزية فتؤخذ من الذمى ، ومقدارها أربعة وعشرون درهماً فى السنة على كل رجل ، وأعفى عمر منها النساء والصبيان والعاجز والمدين . وكان يشترط على عماله أن يجبوها « بلا سوط ولا نوط »[10](أى بلا ضرب ولا تعليق)، وأعفى منها العرب المسيحيين من بنى تغلب[11] كما أسقطها عمن يسلم . وهذا يعنى أن التعريب كالإسلام فى نظرة عمر المستقبلية ، فقد أخذ من بنى تغلب ضعف الزكاة .

وأما الخراج فقد فرض عمر على جريب الكرم عشرة دراهم ، وعلى جريب النخل خمسة دراهم ، وعلى جريب الشعير درهمين فى السنة . (الجريب أرض مساحتها 3600 ذراع).

والذميون هم المواطنون غير المسلمين فى ديار

---

10 ـ الأموال لأبى عبيد ص 43 (مصر) .
11 ـ الأموال لأبى عبيد ص 541.

الإسلام الذين صالحوا الجيش العربى على « ألا يمالئوا علينا عدونا ولا يؤوا لنا محدِثاً ، فإذا فعلوا فهم آمنون على دمائهم ونسائهم وأبنائهم وأموالهم »[12] . فهم يعفون من الانخراط فى الجيش ويتمتعون بحماية الدولة لحرية العمل والدين والتنقل والمساواة مع العرب المسلمين أمام القانون « لهم ما لنا وعليهم ما علينا » .

وفى رأيى أن هذه المساواة أمام القانون كانت أكبر لحمة ضمت فئات المجتمع الجديد ، إلى جانب تمليك الفلاحين وتحريرهم إذ يجب أن نذكر أن الخراج فرض على أرض كانت اقطاعاً لجنود فارس وبيزنطة وكان الفلاحون أقناناً . فاعتبرهم العرب أحراراً مالكين لأرضهم . ذلك أن قواد الجيوش بعد فتح الشام والعراق جاؤوا يطالبون بتقسيم الأرض التى فتحت حرباً فأبى عمر وحدثت أزمة شديدة اضطر معها إلى إقناع وجوه العرب فرداً فرداً . وكان مما حاجهم به قوله : « والله لا يفتح بعدى بلد

12 ـ الخراج لأبى يوسف ص 46 .

فيكـون فيـه كبـير نيـل ، بـل عسى أن يكـون كَـلاً عـلى المسلمـين . فـإذا قسمت أرض الشـام بعلوجهـا : وأرض العـراق بعلوجها ، فـما يسد بـه الثغور ؟ ومـا يكون للذريـة والأرامـل بهذا البلد وبغيـره من أهـل الشـام والعـراق ؟» .
وكان ردهم عليه : « أتقف مـا أفاء الله علينـا بأسيـافنا عـلى قوم لم يحضروا ولم يشهدوا ، ولأبناء القوم ولأبناء أبنـائهم ولم يحضـروا ؟» فكـان يجيبهم : « رأيت أنـه لم يبق شيء يفتـح بعـد أرض كسـرى . . . وقـد رأيت أن أحبس الأرضـين بعلوجهـا وأضع عليهم فيهـا الخراج . وفى رقـابهم الجـزيـة يؤدونها فتكون فيئاً للمسلمـين : المقاتلة والـذرية ولمن يـأتى من بعـدهم . أرأيتم هـذه الثغـور ؟ لا بـد لهـا من رجـال يلزمـونها ، أرأيتم هـذه المـدن العـظام كـالشام والجـزيـرة والكوفة والبصرة ومصر ، لا بـد من شحنها بـالجند ، وإدرار الـعـطاء عليـهم ، فـمن أيـن يعـطى هـؤلاء إذا قُسـمت الأرضون والعلوج؟»! وقد شمل هذا الإجراء أيضاً أرض مصـر وليبيا التى فتحت بغـير عهد ولا أمـان ، فطلب الـزبير تقسيمها امتنـع عمرو بن العـاص وساعـده الخليفة عمـر فى

ذلك[13]، واعتبر الأقباط أحراراً وليسوا أقناناً[14].

4 ـ الحجج التى أدلى بها عمر لعدم تقسيم الأرض والعلوج تكشف أن هدفه الأساسى استمرار الدولة من بعده فى حدودها التى أقامها لها دون تراجع . فلما ضمن استقرار الملكية والمساواة أمام القانون ، نظر فى طريقة صرف موارد الدولة صرفاً منتظماً عادلاً ، بعد أن كفت الغنائم عن أن تكفى العرب .

عاد الخليفة عمر إلى مشكلة الأرض ، فأوجد ما سماه « أرض الحمى »، وهى أرض تصادرها الدولة وتجعلها من الأملاك العامة وتخصصها لرعى المواشى . على أن يقدم فى الانتفاع بها الفقراء من أصحاب الماشية القليلة ، لذلك منع قطعان عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف من دخولها[15].

وكان يردد الحديث «من أحيا أرضاً ميتة فهى له» .

---

13 ـ الخراج ص 32 .

14 ـ ابن الجوزى ص 86 .

15 ـ فتوح البلدان البلاذرى ص 22 ، مصر .

وكان يقطع الأراضى إذا لم تكن من أرض الخراج[16].

أخيراً نظر فى مسألة الضمان الاجتماعى ، فقال للصحابة : « إنى أرى أن أجعل عطاء للناس فى كل سنة » . وهذا العطاء هو غير الراتب الذى يدفع للجنود والعمال . وأمر أن يبدأ العطاء حسب القرابة من الرسول ثم أبى بكر وقومه ثم عمر وقومه . وكان أبو بكر قد سوى بين الناس فى العطاء ، فامتنع عمر وقال : « لا أجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه» ثم استدرك قائلاً: «والله لئن جاءت الأعاجم بالأعمال ، وجئنا بغير عمل ، فهم أولى بمحمد منا يوم القيامة . . . فإن من قصر به عمله لم يسرع به نسبه » . فبدأ بأزواج النبى ثم للبدريين والأنصار ثم للمهاجرين ثم للقراء، ثم لأهل القادسية والشام ـ وزاد عطاء أهل البلاء البارع منهم عن بقية المقاتلين . ثم جعل من بقى من العرب باباً واحداً بالسوية[17]، رجالهم على

16ـ الأموال لأبى عبيد ص 276ـ 277، والخراج ص 77 .

17ـ طبقات ابن سعد 212:1، خطط المقريزى 92:1، الطبرى 16:4 سنة 15 . فتوح البلدان 436 .

ذلك ونساؤهم . وكان يفرض للّقيط ويجعل رضاعه ونفقته من بيت المال. لكنه لم يفرض للمولود حتى يفطم ـ إلا أنه شاهد امرأة تفطم وليدها قبل أوانه طمعاً بالعطاء فرجع عن رأيه وفرض للمولود . وكان يجعل فكاك الأسرى من بيت المال وكذلك جعل أعطيات للفرس الذين آمنوا وتركوا جيشهم ولحقوا به إلى المدينة . ففرض لبعض الدهاقين وللهرمزان[18] . وتوسع فى ذلك حتى أوصى بإعطاء المساكين من أهل الذمة بناء على تفسيره للآية : ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين ﴾ ـ قال عمر «الفقراء هم المسلمون . وهذا (اليهودى) من المساكين من اهل الكتاب[19] . وحين قدم عمر إلى الشام مر بقوم مجذمين من النصارى فأمر أن يجرى عليهم القوت[20] . وهكذا نرى أن الضمان الاجتماعى كان يتوسع فى ممارسات عمر ليشمل غير العرب وغير المسلمين ـ على الرغم من أن هؤلاء يملكون الأراضى والتجارة ، بينما اقتصر العرب على

18 ـ فتوح البلدان 444 والخراج لابن آدم 60 .

19 ـ الخراج لأبى يوسف ص 150 .

20 ـ فتوح البلدان 135 .

الانخراط فى الجيش دون أن يملكوا شيئاً .

5 ـ بعد استمرار الدولة واشتراكيتها . اهتم الخليفة عمر بن الخطاب بوحدة الدولة وتقدمها .

هذه الوحدة ، فهمها عمر على أنها وحدة جبهات القتال ومركزية الإدارة . فكان ينقل الجيوش حسب الحاجة من إقليم إلى إقليم ، وليست هذه المسألة فى حاجة إلى تفصيل بالأمثلة . أما مركزية الادارة فتتجلى فى تشدد عمر مع عماله وقواده . وهنا مسألة شديدة الأهمية يصح الوقوف عندها قليلاً . لقد اشتهر عمر بالشدة . لكن المدقق فى سيرته يرى أن شدته لم تكن مع عامة الشعب بل اقتصرت على الولاة والقواد ، فقد كان يخاف أن يصبح هؤلاء بيرقراطية منتفعة تستأثر بالسلطة وبمكاسب الدولة ، خاصة وأنه كان يتحرى فى عماله القوة والكفاءة : فيقول : « إنى لأتحرج أن أستعمل الرجل وأنا أجد أقوى منه » . وكان يبحث عن القياديين ، وله فى تعريفهم جملة طريفة . فكان يقول : « أريد رجلاً إذا كان فى القوم وليس أميرهم كان كأنه أميرهم ، وإذا كان أميرهم كان كأنه

رجـل منهم[21] . وكـان يقـول للعـامـل : « إنى لم أستعملك عـلى دماء المسلمـين ، ولا على أعـراضهم ولكن استعملتك لتقـيم فـيهـم الصـلاة ، وتـقسـم بيـنهم ، وتحـكم فـيهـم بالعدل » . وقال لعمالـه حين وافـوه فى موسم الحـج : « إنى لم أبعثكم جبـابـرة ولكن بعثتكم أئمـة ، فـلا تضـربـوا المسلمين فتذلوهم ، ولا تحمدوهم فتفتنوهم ، ولا تمنعوهم فتظلموهم »[22] . وكـان إذا استعمل عـاملاً أحصى مـاله . فـإذا وجـده اغتنى ولم يتحقق لـه أنهم استغلوا منصبهم ، قـاسمهم أمـوالهم . وجملتـه « أبت الـدراهم إلاّ أن تمـد أعناقها » شهيرة ، لكن الطريف قوله : « لى على كل خـائن أمينـان : الماء والـطين »[23] يعنى بـذلـك أن العـامـل حـين يغتنى يشرع فى بناء الدور والقصور .

ولم تتجـلَّ مـركـزيـة الـدولـة وتجـاوب العمـال مـع العاصمة كـما تجلت فى التكامـل الاقتصادى عـام الرمـادة .

21ـ الاصابة 1:504 والمحاسن والمساوى 2:54 .

22ـ الخراج 138 .

23ـ عيون الأخبار 1:53 .

ففى سنة 18 للهجرة حصل قحط كان نتيجة أعوام سبقته من الجفاف . فهاجر معظم من بقى فى الجزيرة إلى المدينة وحلَّت المجاعة بالناس ، فكتب إلى سعد فى العراق ومعاوية فى الشام وعمرو فى مصر . فلبَّاه سعد ومعاوية وتباطأ عمرو فيما يبدو . فكتب إليه عمر « بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى العاصى ابن العاصى . سلام عليك ، أما بعد ، أفترانى هالكاً ومن قِبَلى وتعيش أنت ومن قبلَكَ ؟ » فأجابه عمرو فى رسالة « . . . لأبعثن إليك بِعِيرٍ أولها عندك وآخرها عندى . مع أنى أرجو أن أجد سبيلاً أن أحمل فى البحر »[24] .

فلما وصلت المساعدات من الأمصار فرقها عمر فى أنحاء الحجاز ، وفى تهامة ونجد والبحرين واليمن ، فضلاً عن المدينة ومكة والطائف . وتصرفات عمر فى عام الرمادة . ملحمة قائمة بذاتها تستحق من أديب اشتراكي معاصر أن يعيد خلقها فى إبداع أدبى مأثور .

أما تقدم الدولة فيتجلى فى قول الخليفة عمر « تعلّموا

24ـ ابن سعد 223:1 .

العلم وعلِّموه الناس » . وكان يحفظ الشعر ويحضّ على روايته وكتابته ، وإن كان تفضيله له يقوم على أساس أخلاقى[25] ، وعلى أساس معرفته لمكانة الشعر فى حياة العرب ، فقد قال : « كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه . . . » . وكان يبعث رجالاً يستقرئون أهل البوادى ، فمن لم يقرأ ضربه ، وكان يضرب على اللحن ، ويحض على تعلم الكتابة[26] . وكان له فى التربية رأى عجيب الإصابة إذ يقول : « الناس بأزمانهم أشبه منهم بأبائهم[27] ! وكان يحرص على سلامة الأسرة ، فيقول : « . . ولكن فى نساء الأعاجم خلابة ، فإن أقبلتم عليهن غلبنكم على نسائكم »[28] وفى هذا الموقف حرص على مكانة المرأة العربية فى المجتمع الجديد . وشبيه بذلك فى أصالة الرأى ملاحظته اصفرار لون العرب العائدين من

25ـ حول عمر والشعر ، انظر : البيان والتبيين ، الكامل ، طبقات ابن سلام ، مقدمة العمدة .

26ـ الإصابة 1 / 83 ونقد النثر ص 123 ومعجم الأدباء 1 / 19 .

27ـ عيون الأخبار 2 / 1 .

28ـ الطبرى 6 :147 .

فارس لوخومة البلاد ورطوبتها ، فقال : « إن العرب لا يوافقها إلّا ما وافق إبلها من البلدان » . وكان ذلك سبب سماحه ببناء الكوفة والبصرة إذ أرادهما عمر فى موضع «برى بحرى ، ليس بينى وبينكم فيه بحر ولا جسر »[29] . كما أمر بثاقب بصره بحفر قناة السويس : « أن أحفر خليجاً من نيلها حتى يسيل فى البحر . فهو أسهل لما نريد من حمل الطعام إلى المدينة ومكة »[30] . كذلك أنشأ عمرو مدينة الفسطاط برأى عمر .

وأخيراً ، فقد كان الخليفة عمر شديد الاهتمام لمكانة العرب الدولية . وتدعيم موقفهم بين الأمم . قال فى خطبة له : « . . . فأنتم مستخلفون فى الأرض ، قاهرون لأهلها ، قد نصر الله دينكم ، فلم تصبح أمة « مخالفة » لدينكم إلّا أمتان : أمة مستعبدة للإسلام وأهله ، يجزون لكم ، تستصفون معايشهم وكدائحهم ورشح جباههم ، عليهم المؤونة ولكم المنفعة ؛ وأمة تنتظر

---

29 ـ فتوح البلدان 341 والأخبار الطوال 124 والطبرى 4/ 189 .

30 ـ معجم البلدان 3/ 460 .

وقائع الله وسطواته فى كل يوم وليلة ، قد ملأ الله قلوبهم رعباً ، فليس لهم معقل يلجؤون إليه ، ولا مهرب يتقون به ، قد دهمتهم جنود الله عز وجل ونزلت بساحتهم ، مع رفاعة العيش ، واستفاضة المال ، وتتابع البعوث ، وسد الثغور بإذن الله »[31] .

6 ـ آخر أعمال عمر لضمان استمرار الدولة هى تصرفاته حين اغتيل . فبعد أن طعنه أبو لؤلؤة الفارسى وهو يصلى بالناس صلاة الصبح غشى عليه إلى الضحى . فلما أفاق عمر سأل ابن عباس عن قاتله ، فلما علم أنه فارسى ، قال : « ما كانت العرب لتقتلنى »[32]. كان عمر يعرف حكم التاريخ فيه . ولكن كم من الحكام العرب بعده يستطيعون أن يتكلموا بمثل هذه الثقة ؟

غير أن الخليفة عمر لم يطمئن . قال عبد الله بن عمر « ولما طُعن أبى خشى أن يكون له ذنب إلى الناس لا

31ـ الطبرى 5 / 27 وشرح ابن أبى الحديد 3 / 125 .

32ـ أسد الغابة 4 / 74 وابن الجوزى 185 ـ 187 والرياض النضرة 3 / 68 .

يعلمه فدعا إليه عبد الله بن عباس ، وكان يحبه . قال : يا ابن عباس ، اخرج فناد فى الناس : أعن ملأ منكم ومشورة كان هذا الذى أصابنى ؟ فخرج ثم رجع إليه فقال : يا أمير المؤمنين ما أتيت على ملأ من المسلمين إلا يبكون . فكأنما فقدوا اليوم أبناءهم »[33] .

فلما كلمه ابنه عبد الله فى أن يستخلف قال عمر « ان لم استخلف فان رسول الله ﷺ لم يستخلف ، وإن استخلفت فقد استخلف أبو بكر »[34] . وبعد جدال طويل استغرق ثلاثة أيام قال عمر « قد رأيت من أصحابى حرصاً سيئاً ، وإنى جاعل الأمر إلى هؤلاء النفر الستة الذين مات رسول الله ﷺ وهو عنهم راض »[35] . وبذلك لم ينفرد عمر بحمل المسؤولية ، بل سند اختياره إلى القائد الأعظم صاحب الرسالة . والستة أصحاب الشورى هم :

33ـ الرياض النضرة 2/ 68ـ72 وابن سعد 1/ 247 وابن الجوزى 187 .

34ـ تيسير الوصول، قال خرجه الخمسة (البخارى ومسلم وأبو داوود والترمذى والنسائى) (مصر 1346) .

35ـ ابن سعد 1/ 248 .

عثمان وعلى وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص . ثم دعاهم فقال : « إنى قد نظرت لكم فى أمر الناس فلم أجد عند الناس شقاقاً إلاّ أن يكون فيكم » . وحذر عثمان وعلياً وعبد الرحمن بن عوف، كلاً منهم بقوله : « إن وليت شيئاً من أمور المسلمين فلا تحمل بنى أمية على رقاب الناس » . وقال مثل ذلك عن بنى هاشم . فلما خرجوا قال : لو ولّوها الأجلح لسلك بهم الطريق . (يعنى علياً ، وكان أصلع) فقال له ابنه عبد الله : فما يمنعك يا أمير المؤمنين أن تقدم علياً ؟ قال : أكره أن أحملها حياً وميتاً . . . وذكر عمر سعداً فقال : إن وليتم سعداً فسبيل ذاك ، وإلاّ فليستشره الوالى فإنى لم أعزله عن عجز ولا خيانة[36] .

وبذلك يكون عمر قد سمى مرشحيه من بين

36ـ ابن سعد 1/ 247 وابن الجوزى 197 و189 والرياض النضرة 2/ 72 و116 .
جاء فى اللسان (مادة جلح)، الجَلَح : ذهاب الشعر من مقدم الرأس. . .
والتجليح : المكاشفة فى الكلام .
ملاحظة : بخصوص الأخبار وتوثيقها، اعتمدنا مرشداً لنا كتاب «أخبار عمر» تأليف على الطنطاوى وناجى الطنطاوى . دمشق، 1959 .

الستة . وليس عليه إن لم تأخذ لجْنة الشورى برأيه ـ ويكون هذا رداً على من يقول إن عمر ألّف لجنة يعلم أنها تميل الى عثمان والأمويين . ثم إنه ليس فى استطاعته أن يتدخل فى أعمال اللجنة أكثر من تلك الإشارات المتلاحقة ، ما دام يرفض أن يسمى خليفة من بعده . وتاريخ عمر حافل باحترام الشورى وسماع الرأى المخالف ، وكان إيمانه بالشورى سبباً فى أن يحتفظ بكبار الصحابة إلى جانبه ، فلا يوليهم شيئاً من أمور الدولة ، بل يعهد بها إلى قيادات تقع فى الصف الثانى أو الثالث . غير أن مفهوم الخليفة عمر عن الشورى ينحصر بأولى الرأى من أصحاب السابقة فى الإسلام ، أما بقية العرب فلهم منه العدل المطلق والمساواة التامة ؛ وأما الإداريون فكان يراقبهم ويحاسبهم أشد الحساب إن جاروا على الرعية أو حابوا أقاربهم أو أثروا من مناصبهم . أما الحريات الفردية فلم يكن لها مجال فى تفكير عمر .

هذا المفهوم للديمقراطية صالح للأمة فى حالة الحرب والتحرير ، حيث لا مجال للاجتهادات الفكرية أو النزوات الفردية . ونحن نجده متأصلاً بالفطرة فى فكر القائد جمال

عبد الناصر . فقد تبلور وعيه السياسى فى لحظة خطر مصيرية حين كان فى فلسطين :

« ولم ألتق فى فلسطين بالأصدقاء الذين شاركونى فى العمل من أجل مصر . وإنما التقيت أيضاً بالأفكار التى أنارت أمامى السبيل .

« وأنا أذكر أيام كنت أجلس فى الخنادق وأسرح بذهنى إلى مشاكلنا . . .

« كانت الفالوجة محاصرة ، وكان تركيز العدو عليها ضرباً بالمدافع والطيران تركيزاً هائلاً مروعاً . . .

وكثيراً ما قلت لنفسى :

« ها نحن هنا فى هذه الجحور محاصرين . لقد غرر بنا، دفعنا إلى معركة لم نُعد لها. لقد لعبت بأقدارنا مطامع ومؤامرات وشهوات ، وتركنا هنا تحت النيران بغير سلاح .

« وحين كنت أصل إلى هذا الحد من تفكيرى ، كنت أجد خواطرى تقفز فجأة عبر ميادين القتال . وعبر الحدود ، إلى مصر ، وأقول لنفسى :

« هـذا هو وطننـا هناك ، إنـه (فالـوجة) أخـرى على نـطاق كبير . . إن الـذى يحـدث لنـا هنـا صـورة من الـذى يحدث هناك . . صورة مصغرة .

« وطننا ، هو الآخر ، حاصرته المشاكل والأعـداء ، وغرر به . . ودُفع إلى معركة لم يعد لها ، ولعبت بأقداره مطامع ومؤ امرات وشهوات . وترك هناك تحت النيـران بغير سلاح »[37] !

بالتأكيد ، هذه العمليـة الفكريـة فى إسقـاط الخـاص على العام تحمل أكثر من معنى ، خاصة وأن القـائد مهـد لها وتلاها بنظرة تاريخية عن أحوال مصر وأحواله فى تطور وعيـه مـذ كان طـالباً فى الثـلاثينات يخـرج فى المـظاهـرات . وإذن فقـد كانت لحـظة الفالـوجة لحـظة رؤ يـا انكشفت لـه فيهـا أوضـاع أمـة فى حـالـة الحصـار . ولم يفـارقـه الإحسـاس بـالحصار طيلة حيـاته . فحـين حقق الجلاء عن مصـر وجد أنـه سيظل محـاصراً إذا لم يتحـرر المغرب العـربى من فـرنسـا والمشـرق العربى من الأحـلاف والاستعمار البـريطانى ، ثم

---

37 ـ جمال عبد الناصر ، فلسفة الثورة ، القاهرة ، لا تاريخ ، ص 13 ـ 14 .

أبصر أن الأمة العربية لو استقلت أجزاؤ ها فسوف تظل محاصرة بالاستعمار من أطرافها . فساهم فى تحرير إفريقيا وفى إنشاء كتلة عدم الانحياز وتضخيم دورها فى السياسة الدولية ليجعل منها حاجزاً يبعد عنه شبح الجبارين بقدر الإمكان . وعرف سياسة عدم الانحياز بأنها موقف « هو فى صورته النهائية تجمع من أجل السلام القائم على العدل »[38] .

ولعل الإحساس بالحصار نفسه أوحى له بمفهوم الدوائر الثلاث العربية والإفريقية والإسلامية حول مصر، إذ ليست كتلة عدم الانحياز فى النهاية إلا دائرة رابعة تحمى هذه الدوائر وتضمها بالتضامن معها فى أهدافها ونضالها . يدل على هذا الاندماج فى صميم تفكيره الاستراتيجى أن خطابه فى مؤتمر باندونغ (1955) تضمن أهداف الثورة الستة ، وهى :

---

38 ـ من خطابه فى الجلسة الافتتاحية لمؤتمر حكومات الدول غير المنحازة فى القاهرة ـ سبتمبر 1964 .

جمال عبد الناصر ، عدم الانحياز ، مكتبة الرئيس جمال عبد الناصر ، القاهرة ، لا تاريخ ، ص 46 .

1 ـ رفع مستوى معيشة الفرد العادى فى مصر ، مادياً ومعنوياً .

2 ـ إقامة حياة ديمقراطية حقة ، على أساس سليم ، فى البلاد .

3 ـ القضاء على الاقطاع بالإصلاح الزراعى .

4 ـ تخليص الاقتصاد القومى من قبضة الاحتكار ، الذى يحرم الفرد من حريته ، والدولة من سيادتها .

5 ـ تقوية الجيش للمحافظة على سيادتنا وحماية مسؤولياتنا الدولية .

6 ـ نشر العدالة الاجتماعية[39] .

هذه المبادىء الأولى للثورة سبقتها إرهاصات لم ترفق بعزيمة ماضية ولا إرادة منظمة . لذلك جاء جهد القائد مضاعفاً . وكان على وعى جزئى بذلك ، حين قال فى « فلسفة الثورة » :

« لكل شعب من شعوب الأرض ثورتان :

---

39 ـ قال الرئيس ، دار الهلال ، لا تاريخ ، ص 114 .

«ثـورة سياسيـة يسترد بهـا حقه فى حكم نفسـه بنفسه من يـد طـاغيـة فرض عليـه ، أو من جيش معتـد أقـام فى أرضه دون رضاه .

« وثـورة اجتماعيـة تتصارع فيهـا طبقـاتـه ثم يستقـر الأمر فيها على ما يحقق العدالة لأبناء الوطن الواحد » .

وعـلى الـرغم من أن الثـورتـين متكـاملتـان إلّا أن طـريقيهما متعارضان تعارضاً صدامياً . «فالثورة السياسية تتـطلب لنجاحهـا وحـدة جميـع عنـاصـر الأمـة وتـرابـطهـا وتساندها ونكرانها لذاتها فى سبيل الوطن كله .

« والثورة الاجتماعيـة ، من أول مظاهـرها ، تـزلزل القيم وتخلخـل العقائـد ، وتصارع المـواطنـين مـع أنفسهم أفراداً وطبقات ، وتحكم الفسـاد والشـك والكـراهيـة . . والأنانية . .

« وبين شقى الرحى هذين : قدر لنـا أن نعيش اليوم فى ثـورتين : ثـورة تحتم علينا أن نتحـد ونتحاب ونتفـانى فى الهـدف . وثورة تفـرض علينـا ـ بـرغم إرادتنـا ـ أن نتفـرق

وتسودنا البغضاء ، ولا يفكر كل منا إلّا فى نفسه . . »[40] .

هـذا التعارض بـين وسائـل الثورتين ضلل كـل من درسـوا عبد النـاصر من خـارج منظار النـاصـريـة ، أى من منـظور ثورة واحـدة . فهو حـين يريـد أن يجابـه بـريـطانيـا وسيـاسـة الأحـلاف والـرجعيـة العـربيـة وأن ينشىء دولـة الـوحدة ، يجـد نفسه بحـاجـة إلى « اتحـاد قـومى » بمعنييـه اللغـوى والسياسى . ويجـد نفسـه مضـطراً إلى اتخـاذ أبسط الإجـراءات الاقتصـاديـة الإصـلاحيـة . فـلا يضـرب إلّا الاقطاعيات الكبيرة جداً والمصـالح الاقتصـادية الأجنبيـة . ليحافظ على وضع داخلى متمـاسك تجاه العدو الخـارجى . وفى سبيـل ذلـك رفـع الشعـار الـذى سخـر منـه الجميـع وسخَّـروه لمآربهم ، شعـار حل الصـراع الطبقى بـالوسـائل السلميـة . وهو شعـار يـراد بـه تـطمـين المـالكـين وتهـدئـة المعـوزين ـ أى يراد بـه كسب الوقت وتجميـد الصراع ريثما تستأصل شأفة العـدوان الخارجى . وقـد أدى هذا الصـراع الغرض منه فى وقته . ولكن ما إن هـدأت المعارك الخـارجية

---

40 ـ فلسفة الثورة ، ص 25 ـ 26 .

عـامى 1960 و 1961 وتحـرك القـائـد خـطوة واحـدة نحـو الاشتراكية حتى ضربته الرجعية فى مصر وسوريا معاً .

قـال القائـد فى 23 من يوليـو عام 1959 ، أى بعـد عام من قيام دولة الوحدة :

« أنـا أريد أن أفهم كيف تكـون هنـاك ديمقـراطيـة فى هـذا البلد ، وعلى أرضـه 80 ألف عسكرى بـريطانى كـانوا مرابطين فى قناة السويس ؟

« وأريـد أن أفهم كيف تكـون هنـاك ديمقـراطيـة مـع الاقـطاع وسيطرة رأس المـال ، ومع وجـود فئة قليلة تتحكم فى الناس ؟ »[41] .

ومـع ذلك ، فقـد قـال القـائـد فى 1 يـونيـة 1956 إن الاتحاد القومى لن يرشح لعضـوية مجلس الأمـة ، لكن وزير الـداخليـة لـه الحق فى شـطب أسـماء الانتهـازيـين من بـين المـرشحـين[42] . كـان هـذا فى أول عهـد الاتحـاد القـومى

---

41 ـ « الاشتراكية » ، من أقوال الرئيس جمال عبد الناصر ، كتب قومية ، مصر لا تاريخ ، ص 58 .

42 ـ مجموعة خطب وتصريحات وبيانات الرئيس جمال عبد الناصر القسم الأول 1952 ـ 1958 ، وزارة الإرشاد ، القاهرة ، لا تاريخ ، ص 500 .

بالحياة . ولكن القائد فى آخر عهد الاتحاد ، قال :

« هناك من يقول : إن الاتحاد القومى فشل وفقد الصلة بالجماهير . . أنا أعتقد أن الاتحاد القومى كان به عيب واحد . هو أننا تركنا الفرصة للرجعية لتتسلل إليه وتسيطر على المناصب الرئيسية ، ونحن فى هذا كنا حسنى النية . . لأننا عندما كنا نريد أن نحل الصراع الطبقى بالوسائل السلمية ونقيم نوعاً من التعايش السلمى بين الطبقات فى إطار الوحدة الوطنية سمحنا لكل الناس ، حتى للرجعية ، بالدخول فى الاتحاد القومى »[43].

لم يقل القائد ان الاتحاد القومى فشل ، بل قال فى الكلمة ذاتها إن « الاتحاد القومى قام بدور كبير ، وقام بدور فعال للاتصال » . كان القائد يريد قنوات توصل كلمته إلى الناس ، وتجمع الناس حوله جمعاً فعالاً محركاً ،

---

43 ـ الديمقراطية من أقوال الرئيس جمال عبد الناصر، القاهرة، لا تاريخ، ص 62.

وقد جاء هذا التصريح فى الجلسة الثالثة من جلسات المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية 26 مايو 1962 . حين كان القائد على وشك اعلان قيام الاتحاد الاشتراكى .

لأنه عانى عزلة الطليعة عن الجماهير الخاملة ، إن « فلسفة الثورة » ينقل إلينا براءة تصوره الأول قبيل الثورة :

« لقد كنت أتصور قبل 23 يوليو أن الأمة كلها متحفزة . . . وكنت أتصور دورنا على أنه دور طليعة الفدائيين . وكنت أظن أن دورنا هذا لا يستغرق أكثر من بضع ساعات ، ويأتى بعدنا الزحف المقدس للصفوف المتراصة المنتظمة إلى الهدف الكبير . .

« . . . ثم فاجأنى الواقع بعد 23 يوليو . .

« . . . كانت الجموع التى جاءت أشياعاً متفرقة ، وفلولاً متناثرة ، وتعطل الزحف المقدس إلى الهدف الكبير ، وبدت الصورة يومها قاتمة مخيفة تنذر بالخطر . .

« وساعتها أحسست ، وقلبى يملؤه الحزن وتقطر منه المرارة ، أن مهمة الطليعة لم تنته فى هذه الساعة ، وإنما من هذه الساعة بدأت . . »[44].

44ـ فلسفة الثورة ، ص 20ـ21 .

لقـــد كـــان الشعب يغط فى سبـــات عميق ، يعـلله القـائد بـأسباب شتى : « كـانت أرواحنا مـا زالت تعيش فى آثـار القرن الثـالث عشر ، وإن سـرت فى نواحيهـا المختلفـة مـظاهر القـرن التاسـع عشر »[45]، وسبب آخـر هو سيـطرة اقـطاع طاغ منـذ الحروب الصليبيـة إلى اليوم « سحب بقـايا الإحساس بالقوة والكرامـة من هذه العـروق » . وهو يُـرجع مـوقف المتفرج إلى « رواسب حكم المماليك » حـين كانـوا يتنازعون على السلطة فيقف الشعب موقف المتفرج .

والمهمـة التى أحسّ أنها بدأت بـدلاً من أن تنتهى هى مهمة تسييس العرب وإعادة تسييسهم بعد أن عـاشوا قـروناً خـارج دائرة القـرار السياسى المتعلق بمصيـرهم الاجتماعى والقـومى . كـان واجب القيـادة النـاصـريـة أن تصـــل إلى الإنسـان العادى وتحـركـه ، وأن تتصـل بـالمثقف وتضبـطه بحـدود التنـظيم الـذى تمليـه المـرحلة : تنـظيم المجـــابهـة الخـارجية يحتـاج الى اتحاد قـومى . تنظيم الصـراع الـطبقى يحتـاج إلى اتحاد اشتـراكى ـ والتنظيمـان ينحـدران من قمـة

---

45 ـ م . س ص 46 .

السلطة لأنها هى الطليعة الثورية ، وهى التى تتولى مجابهة العدو الخارجى وتدير الصراع الطبقى بشكل يمنعهما من الانفجار . فالحرب الخارجية فرضت فرضاً مما أدى إلى عسكرة التنظيمات السياسية والاجتماعية ـ كما أن توعية الجماهير وتسليم السلطة بمطالبها أدت إلى تسريع الصراع الطبقى بدلاً من تهدئته المنشودة . وأخيراً فهناك التيارات السياسية التى سبقت الثورة وتأصلت فى جسم المجتمع من إخوان مسلمين ووفديين وشيوعيين ، وهم قوة لا يستهان بها إلى اليوم ؛ وهم إن كانوا عاجزين عن البناء فليسوا عاجزين عن الهدم أبداً ـ شأنهم فى ذلك شأن الأحزاب فى سوريا . وكان القائد عبد الناصر يعلم أن التنظيم الذى يقيمه بدعم من سلطته وسلطة الدولة ليس كفاء الأحزاب الملغاة، وكان التخلف الموروث مرضاً مزمناً يقعد بالثورة عن أهدافها ، كما أن زيادة السكان تلغى كل فائض فى العملية الإنتاجية وتستهلكه ، كذلك فإن الحزام العربى من حول مصر تحول بعد الانفصال من جبهة مساندة إلى حزام ضاغط خانق . بالإضافة إلى حرب التجويع والإفقار من جانب الولايات المتحدة والغرب . أخيراً فإن المزايدات

العـربية التى شـرع بها اليسـار الانفصـالى فى أنحـاء الـوطن العربى هددت بـإلقاء ظـل من الشك عـلى مشروعيـة الثورة الناصريـة فى الستينات وعـزلتها عـزلاً تامـاً عن الحكومـات العربية . وإذن ، فقد ظلت الثورة محاصرة ، وظلت الثـورة مقصـــرة . الحصـار منـــع من التـوســـع فى الـديمقـــراطيـة السيـاسيـة ، والتقصـير جعـل الثـورة عـاجـزة عن الـوفـاء بـالتزامـاتها الاجتمـاعية والقـومية . وإذا خـير القـائـد بـين الديمقراطية والعدالة الاجتماعيـة اختار الثـانية دون تـردد . لـذلـك جـاء فى الميثـاق : « إن الـديمقـراطيـة هى الحـريـــة السيـاسية . . والاشتـراكية هى الحـرية الاجتمـاعيـة ، ولا يمكن الفصل بينهما » . ولكن عنـد الممارسـة ، كانت الكفـة ترجح بـاستمرار نحو الاقتصاد . قال القائد فى العيـد العاشـر للثورة عام 1962 « ديمقـراطية الاشتـراكية هى الـديمقراطيـة الاجتماعية. والديمقراطية السياسيـة هى القضاء عـلى الاقطاع، والقضاء على الاحتكار، والقضاء على سيطرة رأس المال، وإيجاد الفرص المتكافئة للجميع »[46].

وبـــالـــرغم من تعليق الـــديمقـــراطيـــة ، لم تتحقـق

46ـ الديمقراطية ، ص 59 .

المساواة ، وأخفق المشروع الوحدوى ، وحلت الهزائم من حيث كانت الأمة ترجو النصر ، ولم يحدث التقدم المنشود على الصعد الثقافية والاقتصادية والعلمية ـ فلماذا ما يزال عبد الناصر بطلاً قومياً ؟

الجواب لأنه أعاد طرح هذه الأهداف على الأمة العربية ، وهى أهدافها الحضارية منذ الأزل . الحرية والوحدة والمساواة والتقدم أهدافنا القومية . فما إن طرحها جمال عبد الناصر وقاتل من أجلها حتى تماهى فى ضمير شعبنا مع أمانى الأمة العربية وتطلعاتها التاريخية . كذلك فإن هذا القائد تماهى بشخصه مع الطليعة العربية المناضلة من أجل الاستقلال والتحرر . إن حديثه عن اشتراكه فى المظاهرات السياسية منذ عام 1930 ، واشتراكه مع أعضاء مجلس الثورة فى حرب فلسطين وتعلقه الدائم بالفقراء بدل الملوك والأغنياء . . كل ذلك أعاد الى الشعب ثقته بنفسه لأنه وجد الحاكم فرداً من أبنائه يعانى ما عانى الجميع ولا يتخذ الحكم مطية للإثراء أو التجبر على الرجل العادى . ـ وهذه الديمقراطية بالمعاناة والتطلعات تبقى أكبر من الدساتير والمؤسسات ، على ضرورتها الحتمية . لقد كانت

زعامة عبد الناصر ضمانة فى ذاتها للشعب وللنضال القومى ـ وهذا التصرف لا يجوز أن يكون قاعدة ، لكن المشكلة أن الذين خلفوا عبد الناصر أخذوا أسوأ ما لديه : احتكار السلطة من دون الشعب ، ولم يُسخّروها للأهداف التي تبناها عبد الناصر وشعبه العربى .

وهذه إحدى إشكالات القيادة الناصرية التى يتاح لها ما لا يتاح لغيرها ، فقد اعتبرت نفسها ، فى فترة تكوين وبناء ، مسؤولة عن أهدافها أمام الشعب مباشرة . وكانت تنظر إلى أى تنظيم نظرتها إلى أداة توصيل ولا تعتبر التنظيم مسؤولاً عن تنظيم هذه الجموع وتقنين تلك الحماسة والطاقات الهدارة . لذلك فكلما عصفت بالتنظيم أزمة من الأزمات ، وجدت الثورة نفسها بعيدة عن الجموع المؤيدة لها . حدث هذا فى سورية وشاهدته بنفسى فى الأسبوع الذى تلا الانفصال ـ إذ لو أن الجماهير السورية كانت معبأة ومنظمة لما مر المشروع الانفصالى بحال من الأحوال . كانت أى أزمة كفيلة بأن تعزل القيادة مع أجهزتها من مخابرات وبيروقراطية .

ومع ذلك فقد أنجز عبد الناصر ما لم ينجزه زعيم

عربى منذ الحروب الصليبية .

أولاً ـ رمى بثقل مصر فى العمل العربى . وهذا أمر قدَّرته الرجعية والاستعمار أكثر مما قدره من يسمون أنفسهم تقدميين . فقد كانوا يتصرفون إزاء القيادة الناصرية وكأن موقفها أمر معطى من الطبيعة ، وليس نتيجة جِهاد واجتهاد .

ثانياً ـ حوَّل الاشتراكية من شعار إلى ممارسة ، بحيث لم يعد فى وسع حاكم عربى أن يتجاهل الطبقة الفقيرة ، فإذا لم يستجب إلى مطالبها فإنه مضطر إلى تزوير الشعارات وتلفيق الوقائع .

ثالثاً ـ أقام نموذجاً للبناء والتنمية لم يكن مألوفاً فى العالم الثالث ، ولم يدركه نظام عربى آخر .

رابعاً ـ انتصر فى كل المعارك التى خاضها مع الاستعمار القديم . وهذا ما ينساه الذين يعتبرون النظام الناصرى مهزوماً على طول الخط . الحقيقة أن بنية مصر والأنظمة العربية لم تكن ولم تصبح إلى الآن مؤهلة لقراع الاستعمار الجديد .

خامساً ـ قدم أنموذجاً للعمل العربي الموحد والتضحيات التي يتطلبها . وهذا النموذج ما يزال حياً في ضمير الشعب العربي إلى حد أن جميع الحكام إلى الآن يدعون الالتزام به .

سادساً ـ ومن أكبر مآثر القيادة الناصرية أنها أقامت دولة الوحدة ، وأظهرت للأمة أن صنع وحدتها أمر قابل للتحقيق بالعمل القومي والسعي إلى التقدم نحو عصر الدول الكبرى والإنجازات العلمية والثورة المستمرة .

وما تزال كلمة القائد في مجلس الأمة في القاهرة عشية إعلان الوحدة بين مصر وسورية في 5 شباط (فبراير) 1958 ـ ما تزال كلمته تعبر عن أهداف الأمة العربية في دولة الوحدة القادمة .

قال القائد جمال عبد الناصر :

« لقد قامت دولة كبرى في هذا الشرق ، ليست دخيلة فيه ، ولا غاصبة . ليست عادية عليه ولا مستعدية .

دولة : تحمي ولا تهدد ، تصون ولا تبدد ، تقوّى

ولا تضعف ، توحد ولا تفرق ، تسالم ولا تفرط . تشد أزر الصديق ، ترد كيد العدو ؛ لا تتحزب ولا تتعصب ، ولا تنحرف ولا تنحاز . تؤكد العدل ، تدعم السلام ، توفر الرخاء لها ولمن حولها وللبشر جميعاً ، بقدر ما تتحمل وتطيق » .

هذه الكلمة ـ البشارة ، قيلت فى أمجد لحظة من تاريخ العرب المعاصر ، وليس المهم أن الدولة الوحدوية انهارت فلم تقم بالتطلعات المنوطة بها . بل المهم أنها أيقظت الأمل عند العرب، ولم يكن القائد جمال عبد الناصر فى مراحلة الأولى ليطمع بأكثر من ذلك ، قال فى 22 يوليو عام 1957 :

« إن أعظم ما حققته هذه الثورة فى رأينا هو أنها أعادت النبض إلى آمال شعبنا . . . إن باب الأمل مفتوح على مصراعيه أمامنا . . . وان الأمل لدعوة صريحة إلى العمل » .

وقد اخترت الحديث عن القائد جمال عبد الناصر لأنه أبرز من حرك الأمل فى نفوس الأمة فأسرعت إلى القتال معه لتحقيق أهدافها فى التحرر والمساواة والوحدة

والتقدم ، فوضع العرب على نهج الطريق الواضح .

كما أنني اخترت الخليفة عمر بن الخطاب لأنه أول من حرر للعرب أراضي ما يزالون يقيمون فيها بفضله الى الآن ، وإن كنا حاليا في شك من قدرتهم على المحافظة على هذا التراث لأنهم قد حادوا عن طريق عمر وباينوه بونا بعيداً حين عجزوا عن إنشاء الدولة القدوة وهذا أهم انجاز قام به عمر بن الخطاب على الإطلاق ، فصار الناس إلى اليوم يقولون بعدل عمر وشدة عمر وشروط عمر . كان عمر حريصاً على إنشاء الدولة ـ القدوة إلى درجة أنه غادر المدينة المنورة إلى (ايلياء) بناء على طلب بطركها الذي أصرَّ أنه لن يسلم مفاتيح المدينة إلاّ إلى الخليفة ، وحين أدركت الصلاة الخليفة عمر وهو في كنيسة القيامة رفض أن يصلي فيها قائلاً للبطريرك بأنه يخشى أن يقول المسلمون إن عمر صلى هنا فيأخذون الكنيسة من أصحابها ، وانصرف إلى خرابة للروم فجعل يزيل القمامة بيده ويعاونه كبار الصحابة وصلى وأمر بإقامة مسجد وبذلك أدى واجبه تجاه الكنيسة ولم يغفل عن واجباته كقائد مسلم .

إن مفهوم الدولة ـ القدوة هو أكبر ضمانه ضد

الاختراق الثقافى لوجدان الرجل العادى ، فمنذ أن يضطهد المواطن ويقول : ما كانت الدولة الفلانية لتفعل بى كذا، أو ما كان العدو ليعاملنى بهذا الشكل ، حتى يبدأ الانهيار القومى مع بداية التبعية الحضارية .

وما لم يخترق أى نطاق عربى جدار الاستهتار بحقوق المواطن من أمن وحرية وملكية فإن خطر الاختراق الحضارى ماثل بشكل مرعب ، لكن الأمة التى أنجبت عمر بن الخطاب وجمال عبد الناصر لن تعقم عن أنجاب قادة مبدعين يتصفون بالرحمة إلى جانب حرصهم على المساواة والتقدم والوحدة .



مُراجعة مَع
الدّكتوُر قسطنطين زريق
لآرائه

---

* رئيس الجامعة السورية سابقاً . استاذ شرف فى التاريخ فى الجامعة الأمريكية فى بيروت . رئيس مجلس أمناء مؤسسة الدراسات الفلسطينية . رئيس فخرى لرابطة الجامعات الدولية . مؤلف فى الموضوعات التاريخية والقومية والحضارية .



س (1)

« فى موقع ممتاز من الكرة الأرضية ، وعلى ملتقى الطرق بين الشرق والغرب ، وفى وسط مجارى الثقافة والمدنية ، تحيا امة قد تشربت عصارة ماضيها ، وتقبلت وحى تاريخها.وأدركت كنه حاضرها ، وعرفت جوهر العالم الذى فيها والعالم الذى حولها ، وتطلعت إلى مستقبلها بنظر ممدود أبداً إلى الأمام ، وقوة مستمدة من هدف منصوب وخطة مرسومة . أمة قد نالت الاستقلال فعرفت معنى الاستقلال ، وأحرزت الوحدة فأدركت غاية الوحدة . امة قد اخترقتها أشعة الحرية فلم تقف عند المادة والجسد ، بل اضاءت العقول وأنارت الأرواح . أمة قد علمت أن السيادة الحقة هى سيادتها على نفسها الصادرة عن فهمها سبب وجودها وماهية كيانها . أمة قد امتلأت قلوب أفرادها بإيمان كل حبة منه تنقل الجبال ، وعلا جباه

رجالها ونسائها ضياء كل قبس منه يهدى الأجيال . أمة يكفينا فى وصفها أن نقول : قد سرى فى نفسها الوعى القومى الكامل . هذا ما نريد الأمة العربية ان تكون . بل هذا ما سوف تكون »[1] .

جاء هذا البيان فى أول كتاب لك فى القضية العربية ، كتاب « الوعى القومى » الذى صدر فى مطلع عام 1940 . ولا ريب فى أنك كنت آنذاك ، فى مثالية الشباب واندفاعه ، شديد الحماسة جامح الخيال . .

إلى أى حد ، بعد أربعين عاماً ، ترى أن الأمة العربية اقتربت ، أو ابتعدت ، عن الصورة المثلى التى رسمتها فى تطلعك إلى ما يجب أن تكون عليه ؟

---

1 ـ د . قسطنطين زريق ، « الوعى القومى »، بيروت 1940، الطبعة الثانية ص 59.

س (2)

ـ جاء فى الوعى القومى قولك : « أكثر ما نتجه عنـد تفكيرنـا فى المسائـل القـوميـة إلى المـاضى لا إلى المستقبل»[1] . ومع ذلك فإن إلحاحك على العقلانية والتحديث ، لا يوازيه إلا شدة إعظامك للتراث ، والدعوة إلى نشره وصونه ، والاهتمام بإحيائه واستيحائه[2] .

فى كتابك « أى غد » عالجت المشكلة من زاوية « العلاقة بين النظرة التقدمية وبين التمسك بالكيان التاريخى والميراث القومى . والواقع أنه ليس ثمة تناقض أساسى بين

---

1 ـ الوعى القومى ، ص 108 .
2 ـ الوعى القومى ، مقالة بعنوان « التراث الثقافى العربى » 133 ـ 155 وانظر « نحن والتاريخ » ص 80 ـ 82 .

الأمرين إذا ضبطا وفهما فهماً صحيحاً. فالكيان التاريخى الإيجابى والميراث القومى الباقى هما نتيجة لنظرة كانت عند الأسلاف تقدمية »[3].

ثم زدت المسألة تفصيلاً فى نحن والتاريخ فبينت أن « التاريخ تاريخان : التاريخ العبء والتاريخ الحافز . . . الانجذاب إلى الماضى الذى يحول النظر والاهتمام عن الحاضر والمستقبل ، والانحصار التام فى دائرة معينة من الماضى - أثران من آثار هذا السحر التاريخى . . نضيف إليهما أثراً ثالثاً هو الاكتفاء بالماضى وعدم الرغبة فى تخطيه»[4]. وضربت مثلاً على ذلك احتفاظ العرب بعصبياتهم الجاهلية فى الماضى وبتعصبهم الطائفى والعشائرى فى الحاضر .

وبما أن أنواع التعصبات والتجزؤات تتكاثر كالفطر ، فهل أن تأثير تاريخنا فينا سلبى أم أننا لم نبلغ بعد إلى « إدراك العناصر الصحيحة » فى حضارتنا ؟ وقد

---

3 ـ أى غد ، ص 61.

4 ـ نحن والتاريخ ، ص 208 وص 212.

حددت هذه العناصر بأنها العلم التطبيقى ، والعلم النظرى ، والفن والجهاد الروحى وتعميم ذلك على سائر أبناء المجتمع :

« هذا التراث هو الذى يبقى إذا استقطرنا تاريخ أية أمة بحوادثه الجزئية المتعددة ومظاهره المتفرقة . فحرىٌّ بالأمة أن تسعى إليه ، وأن تحرص على استخراجه خالصاً نقياً ، لأنه ذخرها الذى يسبغ على حياتها معناها وقيمتها والذى يقويها ويسندها فى الملمات ويكون منطلقها لتحقيقات جديدة »[5] .

لكنك عدت وقررت « أن التراث الحضارى لا ينكشف إلا لمن هو أهل للحضارة ولا يفعل إلاّ فيه »[6] - وبذلك وقعنا فى حلقة مفرغة . فالأمة ، أو نخبتها ، لا تتقدم إلاّ إذا فهمت تراثها ، ولا تفهم تراثها إلاّ إذا تقدمت وأبدعت . كيف الخلاص من هذا الدور الفاسد ؟

وهناك دور آخر مشابه . فقد عرَّفت الفعل التاريخى

5 - نحن والتاريخ ، ص 225

6 - هذا العصر المتفجر ، ص 76 .

بأنه « ذلك النوع من العمل الذى فيه صنع جديد للحياة ، وإبداع لمفاهيمها ونظمها وأشكالها »[7]، ثم قررت أن حكم التاريخ فينا مرتبط « بنتائج الإبداع والتحقيقات فى مجالات الحرية والكرامة »[8].

وكنت قد ختمت مقالك « معنى النكبة » بقولك : « وفى النهاية لن يصيبنا ، ولن نصيب ، إلاّ ما نستحق »[9] - ألا نستحق خيراً من هذا الذى حصل ؟

7 - نحن والتاريخ ، ص 225
8 - نحن والتاريخ ، ص 238.
9 - معنى النكبة ، ص 55.

س (3)

فى العلاقة بين القومية والدين ، تطورت آراؤك نحو العلمانية فيما أظن ، علمانية الدولة وتدين الأفراد . ففى مقالتك « القومية العربية والدين » التى كتبتها عام 1939 بمناسبة ذكرى مولد النبى العربى الكريم ، اكتفيت بالتفريق بين القومية والدين بقولك : « فمنا من يربط قوميته بدين خاص من الأديان السماوية فيطغى فى نفسه الشعور الطائفى على الفكرة القومية ، ومنا من يجعل القومية والدين متناقضين . . كل ذلك راجع إلى قلة تمييزنا بين الروح الدينية والعصبية الطائفية . فالقومية الحقيقية لا يمكنها بحال من الأحوال أن تناقض الدين الصحيح »[10] .

ولكنك بعد عشرين عاماً اتخذت موقفاً أشد

---

10 ـ الوعى القومى ، ص 126 .

جذرية . ففى كتابك «نحن والتاريخ» (1959) [11] قلت جازماً إن الدولة القومية لا بد أن تكون علمانية :

« إن القومية لم تقم فى الغرب فى مجتمع تسوده أوضاع القرون الوسطى ، بل قامت على أنقاض هذه الأوضاع . إن القومية تتعارض والثيوقراطية ، وتتطلب ـ أول ما تتطلب ـ علمانية الدولة . ولم تتأصل جذور القوميات فى العالم ، ولن تتأصل جذور القومية العربية إلّا على هذا الأساس »[12] .

وبعد عشرين عاماً أخرى تقول فى آخر كتاب لك ، « نحن والمستقبل »[13] ، إن للدين آثاراً جمة أبرزها اثنان « الأول إصلاح النفوس ذاتها بما يثير الدين فيها من تطلعات إلى المثل العليا ، وبما ينميه من فضائل الإيمان والصدق والمحبة والتضحية ، وبما يبعثه من جهد للتحرر من أهواء الذات وشهواتها . . . . أما الأثر الإيجابى الثانى

---

11 ـ نحن والتاريخ ، بيروت 1959 .

12 ـ نحن والتاريخ ، ص 203 .

13 ـ نحن والمستقبل ، بيروت 1979 .

للدين فهو أنه ، بتوكيده الأخوة الإنسانية وبتوجيهه النظر والاهتمام إلى « الغير » بدلاً من « الذات » ، تعدى الإصلاح الشخصى إلى الإصلاح المجتمعى »[14] .

ولكنك تعود لتقول « إن الحد الذاتى الرئيسى للدين وللتربية ينجم عن انصرافهما الطاغى إلى تغيير الأشخاص . . . إن الفرد شخص له نفس وعقل ويمكن إصلاحه بإصلاح كل منهما ، فهو بالتالى كائن « خلقى » . أما الجماعة ، عشيرة كانت أو طبقة أو طائفة أو أمة ، فليست كائناً خلقياً وإنما هى كائن « سياسى » . إنها لا تتميّز بالنفس والعقل ، بل بالمصلحة التى تربطها وبالقوة التى تملكها . . »[15] .

فبقدر ما تشجع التدين الفردى تخلع على الدولة طابعاً دنيوياً . ألا ترى أن المجتمع الذى يغلب على أفراده التدين لا بد أن يفرز دولة دينية ؟

---

14 ـ نحن والمستقبل ، ص 226 ـ 227 .

15 ـ المرجع السابق ، ص 329 . وانظر أيضاً بياناً أشد حسماً فى ص 223 حيث يقرر أن «الدين ليس العنصر الحاسم أو المهيمن أو الكافى لتعيين القومية » . وص 360 .



س (4)

ـ كذلك اسمح لى أن أستوضح منك عن تطور رأيك فى الحركات الانقلابية والتقدمية العربية ، إذ يلوح لى أنه عانى بعض التطور .

ففى كتابك الرائع « معنى النكبة »[16] ـ وأصفه بأنه رائع لأنه كتب إبان الحرب الأولى مع الصهاينة وقبل أن يؤسسوا دولتهم فجاء إسهاماً فريداً فى نبوءاته وتحذيراته ـ قلت « إن الغلبة التامة النهائية على هذا الشر [الصهيونى] . . فسبيلها تبدل أساسى فى الوضع العربى ، وانقلاب تام فى أساليب تفكيرنا وعملنا وحياتنا بكاملها »[17] . وألححت على أن انقلاب الوضع

16 ـ معنى النكبة ، بيروت ، آب 1948 .

17 ـ المرجع السابق ، ص 41 .

الاجتماعى شرط لازم لقيام كيان « قومى متحد تقدمى ».
وحددت عناصر التقدمية بأنها :

1 ـ اقتباس الآلة لأنه « كفيل إلى حد بعيد بتهديم القبلية و الاقطاعية .

2 ـ فصل الدولة عن التنظيم الدينى فصلاً مطلقاً ، فإن الفكرة القومية منافية للثيوقراطية الحرفية .

3 ـ تدريب العقل وتنظيمة بالإقبال على العلوم الوضعية والتجريبية .

4 ـ اكتساب خير ما حققته الحضارات الانسانية من قيم عقلية وروحية وقد دعوت آنذاك إلى التعاون مع الكتلة الشرقية والإفراج عن الأحزاب اليسارية .

ثم عدت فى « أى غد »[18]، وذكرت « ثلاثة مقاييس رئيسية لتقدير تقدم مجتمع ما : سلطة المجتمع على الطبيعة ، وشيوع الروح العلمية ، واحترام الشخصية الانسانية . . . هذه المقاييس الثلاثة تتحد فى النهاية فى

18 ـ أى غد ، بيروت ، 1957 .

مقياس واحد شامل هو : الحرية »[19]. كما حددت المجتمع التقدمي بأنه « متحرك متطور »[20].

وقد سلمت بوصول المجتمع العربي إلى الحالة الثورية في نهاية الخمسينات . حيث قلت : « إن المجتمع العربي هو في دور تمخض وانبعاث وفي نزوع إلى تبديل الأوضاع ، وإن هذا النزوع والانبعاث يتخذ الطابع القومي الذي يرمي الى إنشاء أمة متحررة متحدة متحضرة . . .

« . . ومما يتصف به الوضع العربي الحاضر النزوع إلى الثورية في الفكر والعمل . فالدعوة قوية ملحة الى نقض الأوضاع القديمة ، وإلى معالجة الأدوار والمشكلات معالجة جذرية حاسمة . . . إن الثورية التي تجتاح المجتمع العربي لا تقبل بإبقاء الأوضاع القائمة وبمسايرتها ، ولا بإصلاحها إصلاحاً متدرجاً متمهلاً ، بل تدعو إلى «الانقلابية » في الفكر والعمل : إلى « الثورة » على هذه

---

19 ـ المرجع السابق ، ص 63.

20 ـ المرجع السابق ، ص 44.

الأوضـــاع ، وإلى اختيـار الحلول الجـذريـة والمعـالجـات الحـاسمة »[21] ، ممـا يحقق بعض ما دعـوت إليه فى كتـابـك « معنى النكبة »[22].

فى كتـابـك « هـذا العصـر المتفجـر »[23]، طـرحت المشكلة عـلى أسـاس التحضـر بـدلاً من التقـدم ، فقلت : « إن غـاية جهـودنا البـانية ، الفـردية والقـوميـة ، يجب أن تكـون خلق الإنسان العـربى المتحضـر الفـاضـل »[24]. وفصلت القـول فى كتـابـك « فى معـركـة الحضـارة »[25]، فـذكرت أن « أهم المقـاييس التى تبـدو لنـا صـالحـة لقيـاس التحضـر فى مجتمع من المجتمعـات هى : القـدرة التقنيـة ، والـذخيرة العلميـة الخالصـة ، والقيم الخلقية ، والابتكـار الفنى والأدبى ، والحرية الفكـرية ، ومـدى انتشار القـدرات والقيم فى المجتمع ، والنظم والمؤسسات والتقاليـد السائـدة

---

21 ـ نحن والتاريخ ، ص 204.
22 ـ معنى النكبة ، ص 46.
23 ـ « هذا العصر المتفجر »، بيروت 1963.
24 ـ المرجع السابق ص 80.
25 ـ فى معركة الحضارة ، بيروت 1964.

ومـا تتضمنـه من حـريـات وحقـوق ، والأشخـاص الـذين تتمثـل القـدرات والقيم فى سيـرهم وفـاعليـاتهم »[26] ـ ثم أرجعت هذه المقاييس إلى ثـلاثة أصـول : الإبداع والتحـرر والنخبـة . وفى فصـلٍ تـالٍ ربـطت التحضـر بـالتقـدم ، قـائلاً : « إن مفهـومنا للتقـدم لا يختلف أساسـاً عن مفهـوم التحضـر . . . فـالـظاهـرتـان همـا عنـدنـا وجهـان لحقيقـة واحـدة » وذكـرت أن التقـدم يتم عـلى ثـلاث جبهـات : التحكم بالطبيعة وتحرير الإنسان والسمو بالذات[27] .

ثم حلت بالعرب هزيمة حزيران عـام 1967 فأسـرعت فى آب (أغسـطس » من العام ذاتـه بنشر تعليقـك على تلك الهـزيمة فى كتـاب « معنى النكبة مجـدداً »[28]، حيث حددت معنى النكبـة بنـاحيتـين . التخـلف العـلمى والـضعـف النضالى . وألحقت فيه فصلاً من كتابك السابق « فى معـركة الحضـارة » قدمت لـه بأن معـركتنـا الحقيقيـة تكمن فى بنـاء مجتمع علمى متحضر عن طـريق تحويـل العقلية الثـورية إلى

---

26 ـ المرجع السابق ، ص 278 .

27 ـ المرجع السابق ، ص 293 ـ 308 .

28 ـ معنى النكبة مجدداً ، بيروت ، آب 1967 .

ثورية عقليـة[29]، على اعتبـار أن هذه الأخيـرة هى الضمان لكى لا تتخــذ الثـوريــة « أداة لمصلحــة أو وسيلة لحكم أو سبيـلاً لسيـادة . . . وأن تـدرك أن ثمـة حــدوداً لا اختصـار المراحل . . وأن تفسح مجال النقد والمحاسبة . . . »[30].

هذا التحول من العقليـة الثوريـة إلى الثوريـة العقلية أفضى فى آخر كتبك إلى اختيـار الحريـة على الحكم التعبـوى والمصـالحة عـلى الثورة : « ومن هنـا نرى أن أضمن الـطرق وأجـداها للتغيـير هو ذلـك الذي يتقصى تعـديل الأنـظمـة بـالحـوار والمعـاملة ، وبـالتــروض عـلى التنــازل الـطوعى والتضحيـة بالمصـالح الصغـرى من أجل المصـالح الكبـرى المشتـركـة »، ثم تنهى منـاقشـة هـذه القضيـة بنـــوع من المصـالحة بـين المنهجين « ينتـج من هذا كله أن المثـل الأعلى الـذى يصـح أن يبتغى فى تغيـير الأنـظمــة ، تعـديـلاً أو تبديلاً ، هو الجمع بين الفعالية (السريعـة ما أمكن) وبـين الحـرية . إن الميـزة الأولى ضروريـة للتعبئة . . . أمـا . . . الحـرية فهى أيضـاً حاجـة أساسيـة لمحاسبـة ذوى السلطان

29 ـ المرجع السابق ، ص 118 ـ 121 .

30 ـ المرجع السابق ، ص 120 ـ 121 .

ولضمان كرامة المواطن والإنسان . . .

« . . . فالمساعى القومية والإنسانية يجب أن تتجه إلى محاولة التوفيق بينهما ما أمكن . وهذا التوفيق لا يحصل إلا بتضحية من هذا الجانب ومن ذاك : الحرية يجب أن تقبل وتتحمل قيوداً فى سبيل الفعالية ، والفعالية يجب ألا تعطل الحرية أو تفسدها . أما إذا لم يكن هذا التوفيق ممكناً، فإن الواجب فى نظرنا هو التمسك بالحرية، حتى لو كان هذا التمسك على حساب الفعالية . »[31].

ألا ترى أن هذا التحول بين الخيارات يحتاج إلى بعض الشرح والتعليل ؟

---

31 ـ نحن والمستقبل ، ص 352.



س (5)

ـ لقد أولى لدكتور قسطنطين زريق النخبة المبدعة فى الأمة اهتماماً لا نجده فى كتابات غيره من المفكرين ، حتى ليخيل للمرء أن الدكتور يؤمن بنظام نخبوي يحصر السلطة والمسؤولية فى أيدى قلة تدفع المجتمع قدماً الى الأمام بحسب فلسفة عقلانية خاصة . ولا سيما ان الباحث حين آثر الحرية على الفعالية لم يقترح أى شكل لتأطير هذه الحرية إلا حرية النقد والانتقاد[32].

قد يكون من المفيد والممتع ان نتقصى تجليات هذه الفكرة فى كتاباته :

---

32 ـ نحن والتاريخ ، ص 170 — 171 .

في مقالة بعنوان « المفكر العربي وتبعاته »[33] يعرف المفكر بأنه هو الإنسان الذى يعى أزمة مجتمعه وعياً يحفزه « إلى الثورة الهادمة فالعمل البانى » : « العيش تحت وطأة الأزمة - هذا العيش الذى يجب أن يتمثل فى المفكر أولا - هو الشعور الدائم بالخطر المحيق ، هو مجابهة الشدة فى كل لحظة ، وترقب الأهوال تبرز من كل جهة ، هو سلوك السبيل الضيق تحيط به المزالق وتكتنفه المهاوى ، هو التأرجح الدائم بين الأمن والضياع والبقاء والزوال . . » - هذا النوع من الوعى الوجودى لأزمة الأمة يجعل المفكر حسيباً على نفسه فهو الخصم والحكم : « والشعور بالتبعة ومحاسبة النفس أمران متلازمان . . ويكونان معاً صفة من أهم صفات الأشخاص الذين عاشوا حقاً ، وكان لهم أثر فى مجتمعهم ويد فى صنع التاريخ » .

وظيفة المفكر - بتعبير د . زريق - « تبين الحق وتبنيه ، والتصدى الى الجهل ومكافحته ، والثورة على الظلم والفساد » . كما أن المفكر « يتوجه إلى المشاكل

---

33 - أى غد ، ص 11 - 39 .

الأساسية فى الكيان الفردى أو الاجتماعى مقدماً الأهم على المهم . . ». كما أن المفكر « ينخرط فى العمل العام ويظل مع ذلك محافظاً على رسالته الصحيحة » . وكذلك فإنه يتعاون مع زملائه المفكرين ويقبل « أن يسود حقل الفكر شىء من التنظيم » ـ وبالمقابل ، فإن من واجب الدولة أو المجتمع تأمين عيش المفكر لكى يتفرغ لمهماته .

وحين وضع د . زريق مقاييس للتقدم ، حصرها فى العلم التطبيقى ، والعلم النظرى ، والأدب والفن ، والجهاد الروحى ـ ثم قال : « إن هذه التحقيقات المبدعة ، فى ميادين الحق والخير والجمال ، هى من نتاج الأفراد والفئات المبدعين »[34] ، واعتبر نشر هذه المبدعات من مآثر أية حضارة راقية .

وقد احتاط الدكتور زريق فأعلن أن المفكر « إذا اختار طريقاً غير هذه الطريق التى ترسمها وظيفته ، فقد خان هذه الوظيفة وأضحى هو نفسه من عناصر الفساد التى يجب الثورة عليها واقتلاعها ، بل غدا من رؤوس

---

34 ـ أى غد ، ص 16 .

هـذه العناصـر ، لأنـه بحكم طبيعتـه وعمله يحتـل أنىّ كـان مركزاً فعالاً موجهاً : إلى الخير والـرقى كان هـذا التوجيـه أم إلى الشر والانحطاط »[35].

والآن يحق لنـا أن نسـأل الـدكتـور زريق عن رأيـه فى الانتلجنتسيا العربية على صعيد الواقع والممارسة .

* إلى أى حـــد تـراهـــا مؤهلة أو غـــير مؤهلة لأداء واجبـاتها القـوميـة التى تمليهـا عليهـا المـرحلة ـ ولا سيـما أن دعاوى هذه الطبقة عريضة جداً ؟

* إلى أى حد تراهـا قد أدّت واجبـاتها نحـو المجتمع أو قصـرت ـ على هـدى الحقيقـة الملمـوسـة فى أن المجتمـع العـربي لم يتقدم كثيـراً منذ الخمسينـات إلى الآن : فـالأميـة تستولى على أكـثر من 80% ، والتنيمة لا تتمـاشى مع زيـادة السكان ، والقوانين والدسـاتير معـطلة لصالـح الوسـاطات والقرابات . . . وهـذه ليست حال مجتمـع فيه نخبـة مخلصة وفعالة .

* لقـد تكاملت الانتلجنتسيـا العربيـة مـع الـطبقـة

---

35 ـ المصدر السابق .

الحاكمة فى كل قطر . وقد عاد هذا الحلف على بعض المثقفين بمكاسب مادية لا يستحقونها : إلى أى حد ، فى رأيك ، أثّر هذا الحلف على الفكر العربى الراهن فجعله فكراً تبريرياً مهمته تسويغ الواقع بدلاً من انتقاده وتطويره أم أن الموقف التبريرى هو استمرار لروح عصر الانحطاط وإصدار الفتاوى لمصلحة السلاطين والباشاوات ؟

وإذا كانت النخبة تخون الأمانة ، فما هى القيم التى تسود الأوساط الشعبية الأمية ونصف الأمية ؟ وهل الأخلاق السائدة فى النخبة والشعب على السواء تبشر بنهضة أو عقلانية أو ثورة ؟ .



س (6)

ولما كانت الجامعة موطن تأهيل النخبة المبدعة فقد خصّها د . زريق بأبحاث ونظرات نجد أوسعها فى مقالته « دور الجامعة فى الحياة الوطنية »[36] . وفيها يعتبر الجامعة «فى مقدمة المؤسسات الجامعة وعياً وأثراً» لأن « من صميم وظيفتها التساؤ ل والتأمل ، والسعى إلى الحقيقة والخضوع لأحكامها » . فالجامعة أهم وسائل التحديث عن طريق إعداد الفنيين ، وتدعيم القيم الأساسية التى ينبعث منها الولاء الوطنى المشترك ، والتفتح الحضارى وتنمية الوعى به عن طريق التوفيق بين العلوم الطبيعية والعلوم الانسانية ، وأخيراً فإن الجامعة تأخذ على عاتقها مهمة تجديد العلم ودفعه إلى الأمام ـ وهى هنا تختلف عن معهد

---

36 ـ هذا العصر المتفجر ، ص 110 ـ 142 .

الأبحاث من حيث كونها تعنى بالتعليم وتتوخى النظر الكلى الجامع ، فى حين أن معهد الأبحاث يغلب فيه البحث على التعليم ، ويختص بجانب واحد من المعرفة . من هنا لا تستطيع الجامعة تأدية رسالتها الشاملة إلاّ إذا توافرت لها حرية التفكير والتعبير : على أنها تعتبر هذه الحرية « تبعة تجاه الحقيقة ومسؤولية نحو المجتمع » . إن مهمات الجامعة الوطنية توجب عليها « أن تكون فى المجتمع موئل العقل ، ومنبت الخلق ، ومبعث الضمير . . فتكون داخل وطنها أو مجتمعها صورة للمجتمع المثالى الفاضل » .

بالنسبة للجامعات ، أليس مما يلفت النظر أن المثقفين فشلوا إلى الآن فى إنشاء جامعة لها قيمة عالمية فى أى جانب من جوانب الفكر : بدءاً من الأدب العربي وانتهاء بعلوم الفضاء ؟

كما أن تسهيل الانتساب للجامعات حمَّلها عدداً من الطلاب يفوق طاقة جهازها التعليمى والعلمى ـ لكن الاتجاه إلى حصر التعليم الجامعى بطبقة أو حزب أشد خطراً من التسيب السابق . فما هى الضوابط التى تسمح للنابغين والراغبين بمتابعة تعليمهم العالى ، دون الاعتماد

على نفوذ الطبقة الغنية أو الفئة الحاكمة ؟ ألا ترى أن إهمال النبوغ الطبيعى أشد خطراً من هجرة المثقفين ؟

وعلى صعيد هجرة المثقفين ، ألا ترى أن طبيعة الأنظمة العربية بشكلها الراهن تضيق ذرعاً بالمثقفين أصحاب الرأى من جهة ، وتهمل الاختصاصيين فلا تكافئهم ولا تتيح لهم ممارسة علومهم من جهة أخرى ؟



س (7)

* سؤال أخير ، من خارج الكتب :

ألا ترى أن الكيانات العربية أقرب إلى دويلات المدن ، بالمعنى اليونانى ، منها إلى روح الدولة الحديثة ؟

وأن التباعد المزمن بين هذه الكيانات جعلها الآن أقوى وأرسخ من أى وقت مضى - وبالتالى أبعد ما يكون عن الوحدة أو الاتحاد ، إلا بشكل لفظى ؟

وأن هذه الكيانات بحكم حجمها أبعد ما تكون عن روح العصر - فهى عاجزة عن التصنيع الثقيل والإنتاج الغزير والزراعة المكثفة ، وبالتالى فلا يمكن للعرب ان يحققوا أى تقدم حضارى ما دامت هذه الكيانات جاثمة ضمن حدودها المتصلبة ، فلا هى تزول ولا هى تتعاون فى أى مضمار صناعى أو زراعي أو ثقافى ! !



تعليق الدكتور زريق على تلك التساؤلات

إنى أقدِّر الجهد الذى بذل فى قراءة مؤلفاتى ، واستخلاص بعض التساؤلات التى تخرج أو تصدر عنها . ومن الطبيعى أن تكون ثمة تساؤلات . لأن الإنتاج الفكرى الذى لا يثير تساؤلاً أو نقداً أو اعتراضاً ، ليس جديراً بالقراءة ، ولا يكون له أثر باق . غير أنه لا بد من ملاحظة ، وهى أنه إذا انتزعت أفكار من هنا وهناك فى عدة مؤلفات ، فمن الطبيعى أن تتعارض بعضها وألّا يبين الانسجام الداخلى فيها ، خصوصاً إذا كانت هذه المؤلفات قد كتبت على مدى أكثر من ثلاثين سنة .

وإنى لأزعم أنه بالرغم من هذه الأمثلة من التباين ، وغيرها مما يمكن استخراجه من المؤلفات أن ثمة خطاً متماسكاً يربطها كلها ويرتبط هو بذاته بالأحداث والأجواء التى سادت المجتمع العربى فى السنوات الأخيرة الماضية .

فما هو هذا الخط ؟

نشأتُ فى جيل كان همه الأول النضال فى سبيل استقلال البلاد العربية عن الدول المنتدبة أو المستعمرة . وقد كان سبقنا جيل أو أكثر حمل لواء هذا النضال ضد الحكم العثمانى ثم ضد الدول الغربية المستعمرة . وما لبث أبناء جيلى أن شعروا أن النضال فى سبيل الاستقلال لا يؤ تى ثماره إن لم يكن ناشئاً عن فكرة قومية منتظمة وفاعلة فى الأشخاص وفى الأحداث وبرزت فى الميدان عدة فكر قومية ، منها الفكرة القومية العربية ، ومنها ماهو مقصور على قطر معين أو على جانب من المجتمع العربى . وإنى وجدت شخصياً أن الفكرة الصحيحة التى يجب النضال من أجل تكوينها وترسيخها ونشرها فى النفوس هى الفكرة القومية العربية . ومن هنا كان إسهامى فى محاولة توضيح هذه الفكرة وابرازها .

لم ينصب هذا التوضيح على شمول الفكرة للشعوب العربية فحسب ، بل على انبساط هذه الفكرة على جميع نواحى الحياة . إنها ليست فكرة سياسية فقط تقتصر على التحرر من النفوذ الأجنبى وإنما هى أيضاً فكرة تنسحب

على الاقتصاد والاجتماع والفكر ، ولها أهداف في كل جانب من هذه الجوانب وهدف عام هو إحياء الأمة العربية ، وتنمية قدرتها الذاتية ، وإبراز مميزاتها بين سائر الأمم .

ثم جاءت نكبة فلسطين فأظهرت الضعف العربي الداخلي إزاء القوى الصهيونية ، والقوى الجبارة التي تساندها . فأصبح واضحاً لي ولكثير من أمثالي أن النضال الخارجي يبقى مشلولاً . وبعيداً عن غايته إذا لم يدعم بنضال داخلي لاستكشاف معالجتها كي يكون هذا المجتمع مؤهلاً لمجابهة الأخطار الهائلة المحدقة به . تبين إذن أن المعضلة الأساسية هي معضلة التخلف في المجتمع العربي . فكان هذا منطلقاً لمحاولة تفهم أسرار التخلف ، من جهة ، ومباعث التقدم والتحضر من جهة أخرى . ومن هنا كانت دراساتي في ميدان الحضارة العربية والحضارات الأخرى . للاهتداء بضوئها في معالجة الحاضر العربي واستشفاف مستقبله . وإذا أردت أن أوجز حصيلة ما خرجت به ركزت على مطلوبين أساسيين :

المطلوب الأول : هو إنماء العقلانية في النفوس وفي كل جهد وطني . فالعقل هو الذي يميز بين الصواب

والخطأ وهو الذى بنى القدرة الهائلة التى تتمتع بها القوى المتفوقة اليوم ، وهو الذى ـ بانتظامه ـ ينظم الحياة ، وبتراكمه المستمر يوفر المنعة والقدرة . فلا ندحة للمجتمع العربى إذا أراد البقاء فى هذا العصر عن أن يسلك هذا الطريق وأن يفيد من كل ما أنتجه العقل الإنسانى حتى الآن ، وأن يؤهل نفسه للإضافة إليه .

أما المطلوب الثانى : فأختصره بكلمة ليست مقبولة جداً فى هذه الأيام ـ أو على الأقل تعتبر أمراً ساذجاً ، وأعنى بها الفضيلة . هذه الكلمة الغائبة عن قاموس حياتنا فى هذه الأيام تعنى التغلب على الأهواء الشخصية والفئوية ، والتنزه عن الأطماع الفردية ، والانفتاح على الغير ، وطلب الخير للجميع حيثما كان . وفيما يتعلق بالمطلوب الثانى على الأخص تأتى أهمية التراث ، لأنى أعتبر أن جوهر تراثنا هو فى هذا الميدان بالذات ، أى فيما يحمله من ثروة خلقية وقدوة صالحة وتطلعات نحو الأفضل والأسمى .

إذن ليس ثمة من تعارض بين الإقبال على كل مصدر من مصادر التقدم ، وهى فى أكثرها عقلانية ، وعلى إحياء تراثنا والاغتناء بحوافزه الخلقية والأدبية . وإذا كانت

معالجة قضيـة التخلف هى القضية الأهم ، بـاعتبار أن كـل مشكلة من مشكلاتنا الأخرى هى ظاهرة لها ، فـإن الحاجـة مـاسة إلى الانصبـاب عـلى واقـع المجتمـع العـربى ، وعـلى الآفـاق المرتسمـة أمامـه . وإن من يقدم عـلى ذلك تتبـين له بـين الحقـائق المختلفـة التى تبـرز فى هـذا الميـدان حقيقتـان أساسيتان :

الحقيقة الأولى : هى الفجوة المتسعة بين القـدرة التى تتمتـع بها الشعـوب المتقـدمـة ، والقـدرة المحـدودة لـدى الشعـوب المتخلفـة التى نحن منهـا . إن الشعـوب المتخلفـة محاصرة على جميع الجبهات . والشعوب المتقدمة تقبـل عليها بجبروتها وقـدراتها لاستغـلال ثرواتهـا والتحكم بإرادتهـا ، ولن يخفف هـول هـذا الـطغيـان ســوى نهضـة الشعــوب المتخلفة لبناء قدراتها الذاتية ، ولمحـاولة تضييق هـذه الشقة بينها وبين الشعوب المتقدمة .

هذه هى الحقيقة الأولى ، أمـا الحقيقة الثـانية فهى أن الشعـوب المتقدمـة ذاتها تشعـر أنها تمر فى أزمـة متصاعـدة لا مجال هنا لتبيان أسبابها وظواهـرها . لـذلك فهى تتجـه نحو المستقبـل محاولـة استكشاف آفـاقه وتبـين الخيارات الـرهيبة التى تبـدو من خـلال هــذه الآفــاق . ولا غنى للشعــوب

العربية من أن تتجه هذا الاتجاه بالـذات لتعرف أولاً مـوقعها فى خضم هــذا العصـر . والخيــارات المـاثلة أمــامهــا فى السنـوات المقبلة . ومن هنـا كـانت عنـايتى بــالمستقبليـة ، وبـالتـطورات المقبلة سـواء عـلى السـاحـة العـربيـة أو عـلى الساحة العالمية .

إن الشقـة البعيـدة التى تفصـل قـدرتنـا الضئيلة عن قـدرة الـدول المتقـدمـة تعــرض علينـا التغـير المتسـارع ، واختصار المراحـل ، والسير قـدماً وبـلا تردد نحـو الأهداف المرسومة . إنها تفرض علينا بالتالى عقلية ثـورية لا تنصـرف إلى الخـارج فحسب وإنما تتنـاول الكيان العـربى بالـذات ، أنظمة ومؤسســات وفكراً وعقـلاً وخلقاً . تفـرض علينا أن نتجـدد تجديـداً يبعث فينا القـوة . ويقلبنا من انفعـاليين إلى فاعلين ، ويتيح لنـا الصمود أمـام القوى الجبـارة ، ويؤهلنا للابداع فى التحرر ، تحررنا وتحرر الإنسان حيثما كان .

بإختصار إذن ، إن الخط الذى أشرت إليه يسير من طلب الاستقلال إلى تكوين الفكـر القومى ، إلى معـالجة قضايا التخلف ، إلى استكشاف منابـع التحضر والتقـدم ، إلى تلمس معانى الثورة الكيانية التى تخلقنا خلقاً جديداً .

وقبل أن أختم هذا التعليق يجدر بي إبداء ملاحظتين :

أولاهما هي أن جوهر التقدم هو التحرر . التحرر من سلطة الطبيعة ، ومن ظلم الإنسان للإنسان ، ومن الأهواء والأطماع الداخلية . والنضال في سبيل هذا التحرر يقتضي جواً من الحرية ، لأنك لا تستطيع أن تحرر مواطنك وأن تتيح له سبل التقدم بالكبت والقهر . إن الغاية من الجهاد التحرري العربي هو الإنسان العربي . ومنطلق تحرره هو الإيمان بكرامته . وهذا الإيمان يقتضي أن تتيح له مجال الاختيار وإمكان الإعراب عن حقوقه وتطلعاته بحرية تامة وبدون وجل أو تردد .

أما الملاحظة الثانية فهي أن العقلانية التي تكلمت عنها لا تأتي من فراغ ، ولا تنبت في يباب . وإنما يجب أن تكون لها في المجتمع خلايا حية تحتضنها وتنميها وتدافع عنها وتبث معانيها في المجتمع . وفي مقدمة هذه الخلايا الجامعات . فالمفروض أن الجامعة هي حصن العقل ، ترتاده بالبحث المستمر المضني ، وتنمية في نفوس الناشئة . ليست الجامعة مصنع شهادات ، ولا مجتمع اختصاصات ؛ وإنما هي في الأصل منبع ثري من منابع

التشوف العقلى والتسامى النفسى . طبعاً إن جامعاتنا العربية تخضع فى الآونة الحاضرة لظروف وأسباب تمنعها من أن تحقق وظيفتها هذه . ولكن مستقبلها ومقدار نفعها أو ضررها للمجتمع رهين بوضوح رؤ يتها لرسالتها الأصيلة وصمودها فى وجه الضغوط التى تحولها عنها . وعودتها باستمرار إلى معانى هذه الرسالة لتستمد منها قدرتها على العطاء .

على ضوء اقتناعى هذا ، وبسبب مهماتى الجامعية خلال حياتى العملية ، كان أيضاً اهتمامى بالتعليم العالى في البلاد العربية وعلى الساحة العالمية ، وكان ربط هذا الاهتمام بالاهتمام القومى العربى بمعناه الأشمل .

بَعْدَ التَطْبِيْع السِّيَاسِيْ ..



التطبيع الثقافى بين مصر وإسرائيل

الاستقلال الثقافى هو الخطوة الأولى لنمو الوعى بأنواع الاستقلال الأخرى من استقلال سياسى واقتصادى وصناعى وعسكرى . . مثلما أنه محصلة أخيرة لهذه الاستقلالات .

مع الشعور بالحاجة إلى الاستقلال ككل يتولد الشعور بالحاجة إلى الوحدة العربية كضرورة عملية سواء فى حالات التصدى للعدوان الاستعمارى أو التنمية بفروعها المختلفة . .

وهنا أيضاً يسعفنا الاستقلال الثقافى ببعث الوجدان القومى عند العرب ، لتطوير شخصية قومية حديثة تضرب بجذورها فى أعماق تاريخنا المجيد لاستئناف إسهامنا فى الحضارة البشرية .

تطبيع العلاقات الثقافية بين مصر وإسرائيل يعنى بالضرورة تنازلاً عن كل هذه الطموحات ـ وبالتالى الوقوع فى التبعية الثقافية للفكر الصهيونى القائم على إنكار الحضارة العربية فى الماضى ، والوجود العربى فى الحاضر ، وتطلعات العرب إلى مستقبل أفضل .

التبعية الثقافية للصهيونية تستلزم ضرورة اعتناق فكر انفصالى ، مقاوم للوحدة العربية ، وتوجهات سياسية معادية للتحرر ، ومبادىء انهزامية تدعو إلى سلسلة لا متناهية من التنازلات تبدأ بالأرض ولا تنتهى بالاستقلال بل بالشخصية القومية .

فيما يلي دراسة عن بواكير التطبيع الثقافى بين مصر وإسرائيل ، وكشف عن آثارها فى حقول المؤسسات الثقافية والتوجيه القومى والنتاج الأدبى .

1 ـ البيغنية محل الناصرية

فى كل الدول الحديثة ، مهما كان نوع النظام الحاكم ، يتماشى الإرشاد الثقافى مع التوجيه الإعلامى . الفرق بينهما أن الإرشاد الثقافى ينضج على نار هادئة ، لتكوين مواقف ثابتة فى نفس المواطن . أما التوجيه

الإعلامى فهو بمثابة «قراءة» سريعـة للأحـداث ، وتفسير مرتجل لها يستند إلى القيم التى بثتها الثقافـة من قبل . فكـأن الثقافة هى الاستـراتيجية ، والإعـلام هو التكتيـك فى حقل العمل الفكرى .

ولما كان الفكر الساداتى أبعد فى العمالة من كل فكـرة دخيلة تسللت إلى النفس العربية فى العصور الحديثة ، فإنـه فكر مقطوع الجذور عن النفس العربيـة عامـة ، وعن الفكر المصرى بخاصـة . لذلـك لم يجد مستنـداً فى الداخـل سوى النـزعة الاقليميـة الانفصاليـة ، فـأطلقهـا تعيث فسـاداً فى أجهـزة الإعـلام . ولم يغفـل عن التـوجيـه التـربـوى فى المدارس ، والتوجيه القومـى فى الجامعـات ، فراح يخصص السـاعـات الـطوال فى المـدارس لتشـويـه التـاريـخ العـربى الحـديث ، وإعادة كتـابته عـلى أسس متوافقـة مع النـظريـة الصهيونية فى حق اليهـود بفلسطين ، وفى تصـوير الحـروب العربية الإسرائيلية عـلى أنها عدوان من الجـانب العربى عـلى الصهاينة « المسالمين » .

ولم يسلم من الإفسـاد الساداتى الجـانب التوجيهى فى الـدين ، فشوَّه أغـراض الآيات الكـريمة التى تجيز مسـالمـة العـدو ، وسخـر بعض أدعيـاء التـدين للكـذب عـلى الله

ورسوله فى موقف الإسلام من العدوان على المسلمين ، والاعتداء على الأماكن المقدسة . كما تجاهل حقيقة أن إسرائيل عبثت بالقرآن الكريم وأعدت طبعة خاصة منه تخلو من الآيات الكريمة التى تعرّض بلجاجة بنى اسرائيل وماديتهم وجشعهم .

لكن الجانب الاستراتيجى الآخر الذى لم يكشف النقاب عنه بعد ، هو أن مصلحة الاستعلامات فى رئاسة الجمهورية المصرية تتولى مباشرة ترجمة الكتب الاسرائيلية من العبرية إلى العربية دون تعليق ولا تنقيح . فقد صدر لمناحيم بيغن ، وعنه ، عدد من الكتب الصهيونية المحضة . نخص منها بالذكر كتاب فيكتور مالكا « بيغن : التوراة والبندقية » . وجاء على غلاف الكتاب : « البيغنية ، هى العمل الذى يقوم به رجل فى محاولة لدفع التاريخ والسيطرة عليه » .

إن إحلال « البيغنية » محل الناصرية فى مصر ، لا يظهر فقط خواء الفكر الساداتى واعتماده على الصهيونية لتدعيم مواقفه الاستسلامية ، وإنما يطلعنا أيضاً على خطورة الغزو الفكرى الذى يحاول السادات فرضه على مصر . إن الغزو الثقافى المتمثل بصهينة مصر ، أخطر

مؤامرة على الشخصية القومية منذ محاولة فرنسة المغرب العربى .

2 ـ تفكيك الأجهزة الثقافية .

أصبح واضحاً الآن أنه كان لدى السادات ، منذ بداية حكمه لمصر ، مخطط ثقافى وإعلامى متكامل . قوامه القضاء على الخط الفكرى القومى ـ التقدمى الذى أرساه الرئيس جمال عبد الناصر بالتعاون مع المثقفين القوميين واليساريين منذ بداية ثورة يوليو إلى وفاته .

وقد بدأ السادات عملية القضاء على الفكر القومى التحررى بالقضاء على الجناح السياسى الذى كان يمثله على صبرى . فلما واجه أزمة فى المفكرين عمد إلى إنقاص عدد الصفحات فى الجرائد اليومية ، وإلغاء بعض المجلات الأسبوعية والشهرية ليحرم المثقفين من وسائل النشر . وأرفق كل ذلك بحملة إرهاب اعتقل فيها عشرات الكتّاب والصحافيين ـ لكنه أنهى هذه الحملة ، على الطريقة الإسرائيلية . فكان يفرج عن كل كاتب يتعهد بمغادرة مصر . إلى أن فرغت مصر ، أو كادت ، من حَمَلة الأقلام « الخطرة » . وخلال ذلك أتم السادات تنظيم جهازه

الإعلامى على النحو الذى نراه اليوم . بحيث إنه حين قام بمبادرته المشؤ ومة فى 19/ 11/ 1977 وزار القدس تحت الاحتلال الإسرائيلى ، لم يكن بحاجة إلى أى تغيير فى جهازه الإعلامى من حملة الأقلام الذليلة المشبوهة التى ظلت ترافقه إلى 26/ 3/ 1979 يوم توقيع اتفاقية الاستسلام . ومن البدهى أنها سوف تظل معه إلى أن ترحل برحيله على أبشع صورة من الصور .

ولكن إذا كان بالإمكان ملء أجهزة الإعلام بالمرتزقة والمستوظفين والانتهازيين ، بعد التخلص من الصحافيين الشرفاء، فإن الجو الثقافى بدا أكثر مقاومة. إذ لا يمكن للسادات أن يقضى على التراث الوطنى فى مصر . والقيم الفكرية التى أرسى دعائمها مفكرون أصلاء منذ أيام رفاعة الطهطاوى ومحمد عبدة . فقد ترسخ فى ضمير الأجيال أن مصر معقل العروبة ، وحصن الإسلام ، وقاعدة العالم الثالث لمحاربة الاستعمار والصهيونية ، ورائدة الأمة العربية إلى التحرر والاشتراكية والتصنيع والوحدة ؛ بحيث صار من الصعب أن ينشأ شاعر أو روائي أو قصّاص أو ناقد أو مسرحى أصيل خارج هذه المنظومة من القيم .

لذلك عمد السادات إلى تفكيك الأجهزة الثقافية وإلغائها . فبدأ بإلغاء هيئات الكتاب والسينما والفنون ، حسبما جاء فى الأهرام 30/ 11/ 1978 :

« تضمن المشروع بأن يلغى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، وكذلك تلغى الهيئة المصرية العامة للكتّاب ، والهيئة العامة للسينما والمسرح والموسيقى ، والهيئة العامة للفنون والآداب ، وتؤ ول اختصاصاتها التنفيذية إلى المجلس الأعلى للثقافة والفنون » .

هذا المجلس الأعلى سمى فيما بعد « المجلس القومى للثقافة والفنون والآداب والأعلام » . وقد شكله السادات بمرسوم نشرته « الأهرام » فى 14/ 12/ 1978 على أن يكون المجلس تابعاً لرئيس الجمهورية مباشرة ، وبإشراف الدكتور محمد عبد القادر حاتم .

كل هذه التدابير جاءت تبريرا لخطوتين هدامتين قام بهما السادات على صعيد إلغاء الثقافة . أولاهما أنه ألغى وزارة الثقافة ، على الرغم من أن اللجنة البرلمانية للثقافة طالبت بالإجماع فصل وزارة الثقافة عن الإعلام

وتـدعيمها . الخـطوة الثـانيـة أنـه ألغى المجـلات الثقـافيـة المصـرية جميعهـا بحجة أنها خـاسرة مـاليـاً . علماً بـأن كـل المجلات الثقافيـة فى العالم خـاسرة مـالياً ، وتحـظى بالـدعم مـن المؤسـسـات الـرسمـيـة أو من الـشـركـات أو من المخـابرات . لكنـه ـ الرئيس المؤمن ـ حـريص فى « عصـر الانفتاح والديمقراطية » على تهديم الثقافة العـربية تمشيـاً مع المخـطط الإسرائيلى فى الاستعمار الثقـافى . ففى مقابـل ، التقتـير على الكتـاب المصرى وكتّـابه ، نجـد عـلى الجـانب الآخـر إنفاقـاً بغير حسـاب على الكتب الإسرائيلية المتـرجمة إلى العربية ، بحيث يمكن إيجاد كتاب إسرائيلى كـل اسبوع يعرِّف بـالـدين اليهـودى ، أو بـالتقـاليـد أو الأدب أو حتى بـالفكر الصهيـونى . وأبرز مـا صدر فى هـذا المجـال طبعـة لكتـاب مناحيم بيغن « التمـرد » . وربما جـاءت ترجمتـه رداً عـلى تـرجمـة كتـاب السـادات « البحث عن الـذات » إلى العبرية . مما يوحى بوجود بروتوكول ثقافى غير معلن .

فى مقـابـل هـذا « الكـرم » السـاداتى عـلى الفكـر الإسـرائيلى نجـد تشهيراً بـالكتّاب المصـريـين والعـاملين فى الحقل الفكرى على النحو التالى :

« أسرار غلق المجلات الثقافية

حـدثت مفاجـأة قبـل صـدور قـرار إلغـاء المجـلات الثقـافية ، فقـد قدَّم سعـد الدين وهبـة نفس المـذكـرة التى رفعها الدكتـور رشاد رشـدى رئيس تحريـر مجلة « الجديـد » إلى نـائب الـرئيس ، وتتضمن أن مجلة « الجـديـد » تــوزع 80% من أعدادها . وتم تحويل المـذكرة إلى وزيـر الثقافـة ، ثم إلى وكيل الوزارة الذى عرضهـا على مجلس اتحـاد الكتّاب مرفقة بتقـرير عن حـال المجلات . وثبت أن الجـديد تـوزع 12,6% من جملة أعدادها ، وأنها خسرت ما يقـرب من 130 ألف جنيـه منذ صـدورها حتى الآن ، وتليهـا مجلتا الكـاتب والثقـافة . وبلغت جملة الخسـائر مـا يقرب من ربـع مليـون جنيـه . وتم التصويت فى مجلس اتحـاد الكتّـاب عـلى إلغـاء هـذه المجـلات وضمهـــا إلى المجلس ، بأغلبـية 13 ضـد 3 أصوات . »

« أكتوبر » 1/ 4/ 1979 .

إن هذه التخبطات من جـانب السادات إن دلت عـلى شيء فإنما تدل على خـوفه من الأدبـاء ، وعجزه عن احتـواء الكتّاب القوميين التقدميين . ففى النهاية ، ومنذ البـداية ، لم يقف إلى جـانب السـادات سـوى نجيب محفـوظ وتـوفيق

الحكيم ، من بين كل الكتّاب المصريين المعروفين على مستوى عربي . إلاّ أن طروحات هذين الكاتبين تمثل اجتهاداً شخصياً أكثر مما تعبر عن خط فكرى قادر على التصدى للقيم الأساسية القومية والدينية والتحررية ، الراسخة على مر العصور .

3ـ مجلة « اكتوبر » والفكر الانفصالى :

المهمة القذرة فى التصدى لانتماء مصر العربى ، تولاها بشكل استفزازى طاقم مجلة أكتوبر برئاسة أنيس منصور . إن هذا الرجل لم يكن فى العير ولا النفير خلال ثلاثين عاماً مضت . بل اقتصر عمله على أن يكون محرراً فى صحافة المنوعات فى جرائد المساء ، وكاتب رحلات و «بلاى بوى » المجلات الأسبوعية ، لكنه الآن تجاوز دور الأنيس والنديم الذي يتقنه ، وأخذ يقلد العمالقة فى عصر الأقزام . فهو يحاول أن يكون للسادات اليوم ما كانه بالأمس حسنين هيكل للرئيس جمال عبد الناصر ، أو أحمد بهاء الدين للفكر القومي فى مصر . ومهمته اليوم غير شريفة ولا كريمة ، لكنها تليق بقلم هجين وفكر دخيل ، كالذى تمثله بؤرة مجلة أكتوبر .

إن قطع الأواصر القومية ، والاستخفاف بالوحدة

العربية كهدف للنضال ومصير للأمة ، عن طريق استنفار الإقليمية المصرية . والحط من قيمة الشعوب العربية الأخرى ـ ان كل ذلك هو الغاية والوسيلة فى مجلة أكتوبر .

مثلاً ، للسخرية من فكرة الوحدة ومبدئها ، يكتب فايز حلاوة مطالباً بإلغاء عيد الوحدة فى 22/ 2 من كل عام ، وهى الوحدة السورية المصرية التى قامت فى 22 شباط (فبراير) عام 1958 بقيادة الرئيس جمال عبد الناصر ، ثم سقطت تحت ضربات الرجعية ، والمزايدات التقدمية ، والمؤامرات الغربية ـ الصهيونية . وها هو فايز حلاوة يضرب فيها بسهامه الكليلة، فيقول :

« أعشق أيام الإجازات وخصوصاً إذا كانت بدون خصم . أحب يوم الجمعة ويوم الوقفة وعيد النصر وعيد الخرفان وأيضاً عيد الفطر . ولكننى لا أحب أبداً هذا العيد المسمى بعيد الوحدة .

« ولقد كانت الأعياد أيام زمان تتخذ شكلاً من أشكال الاحتفال والمهرجان . أما أضحوكة العصر الحديث فهى ذلك العيد الوهمى المسمى بعيد الوحدة . والذى

تعـطل فيـه أعمـال المصـالـح والـدواوين ويســرح الأبنـاء والمدرسون .

« . . ولقد جربنـا الوحـدة مع سـوريا واليمن وليبيا فعلمنـا منها وتعلمنـا أن الوحـدة هى الـطريق الصحيـح إلى معاشرة جلساء السوء . »

أكتوبر 25/ 2/ 979

يتلو هذا المقطع تعريض بشجاعة الجيش السورى ، واتهام لقدراته القتالية !

مـع هـذه الافتــراءات الحقيـرة التى لن تضلل فـرداً واحداً من أبناء شعبنا العربى فى مصـر ، نشرت مجلة أكتوبر فى عدديها 15 / 4 و 22/ 4/ 1979 قصـة لكاتب إسرائيلى لم تذكر اسمـه (وبالتـالى فقد يكـون الكاتب أنيس منصـور أو فـايـز حـلاوة أو زهـير الشـايب) . القصـة بعنـوان « عـين الصحـراء » . وتتحدث عن « اخـوة » جنديـين «إسرائيلى ومصـرى » ، ضلاّ فى صحـراء سينـاء عن قـطعتيهـما خـلال حـرب 1967 ، فتقـاتـلا مليـاً ثم تعــاونـا ضـد العـطش فى الصحراء على النحو التالى :

« الجنـدى المصرى (حسن) والجنـدى الإسـرائيـلى (دوب) يدونان على رمال سيناء قصة الكفـاح المشترك ضـد العدو المشترك »!!

وفى حين تكرس مجلة « أكتـوبر » صفحـاتها لتـرسيخ « الأخـوة » بـين الجيشـين اللذين لن يتـآخيـا ، ولـو كـره المغـرضون ، نـراها تـركز التنـظير المعـادى للقـومية بيـدى كاتبين تخصصـا فى ضرب مفهـوم الوحـدة من خلال العـودة الانفصالية إلى تشويه الـوحدة المصـرية ـ السـورية ، هـذان الكاتبان هما د . سيد نوفل ، الأمـين العام المسـاعد لجـامعة الدول العربية ، وزهير الشـايب الذى نشـر طيلة عام 1978 فى مجلة أكتوبـر روايـة عـلى شكـل مـذكـرات متسلسلة عن تجربة مدرس مصرى عـاش فى مدينـة حماة السـورية خـلال فترة الوحدة . وهذا التكنيك الروائى أتـاح له فـرصة خبيثـة لكى تضم روايتـه الشتـائم المتبـادلـة بـين الانفصـاليـين من الإقليمين . أما المناضلون الوحـدويون فى سـوريا ، الـذين قاوموا الانفصال وضحوا بأموالهم وأرواحهم لإعـادة سوريـا الى الخط الوحدوى . . أما إيمان الرئيس جمال عبـد الناصـر وعـرب مصر وجيشهـا بأن الـوحدة قـدر لا بـد منـه ، فقـد

عميت عنه بصيرة الروائى التى غرقت فى الأوحال .

على أن وجود روائى أعور لا يرى من الحقيقة العربية إلّا جانبها السلبى مضخماً ، ليس أمراً غريباً ولا جديداً . العجيب المذهل أن رجلاً كالدكتور سيد نوفل ، عمل أميناً عاماً مساعداً فى الجامعة العربية لمدة ثلاثين عاماً ، انضم إلى جوقة انفصالبى مصر . فما إن أنهى زهير الشايب مذكراته الانفصالية بنهاية عام 1978 ، حتى افتتح سيد نوفل العام الجديد بمذكراته التى تدور حول الاستخفاف بالعمل العربي والتيئيس منه . وهو يستعرض تجربة التضامن العربى داخل الجامعة العربية وكأنها مسرحية من مسرحيات العبث غير المعقول .

وهو يتناول الجامعة منذ ولادة فكرتها الأولى ، فيصف بالملهاة مباحثات تأسيسها فى ربيع 1943 ، وهى المباحثات التى سميت « محادثات الوحدة العربية » . يقول :

« فمباحثات الوحدة العربية كانت ملهاة من ملاهى الخيال . ونتائجها كانت مأساة من مآسى الواقع الأليم ، وإن لم يكف تجار السياسة عن الابتزاز باسمها . فهذه

المباحثات لم تنتج منظمة وحدوية ؛ وإنما أنتجت منظمة إقليمية للتعاون الاختيارى . . . وقد أدّى إلى ذلك ذات الخلافات العربية والمداخلات الأجنبية التى نعانى منها الآن . . فالعراق كان يطمع فى دولة الهلال الخصيب أولاً ، تضم إليه سورية والأردن ولبنان وفلسطين . والأردن كان يطالب بسورية أولاً . وسورية كانت تطالب بلبنان . ولبنان كان ينفر من العروبة ويطالب بالاستقلال التام وضمان وحدة أراضيه . . »

« أكتوبر » 1979/5/13

إن المرء ليتساءل بدهشة : أبمثل هذه السطحية يمكن عرض الظواهر المتناقضة فى السياسة العربية آنذاك ، دون أخذ تاريخ المنطقة والعالم بعين الاعتبار ، عند نهاية حرب عالمية ثانية يتصارع فيها الغالبون على اقتسام الغنائم ؟ ألم ينظر إلى الصراع الفرنسى - البريطانى والغزو الصهيونى - الأمريكى ، ومناطق البترول ، والقواعد العسكرية وما فيها من جيوش استعمارية تتحكم فى الحكام والمحكومين ؟ أضمن تلك الظروف يلام العرب على تفرقهم حين لم يخل من الجيوش الأجنبية سوى الحجاز واليمن الشمالى فى طول الأرض العربية وعرضها ؟ وهل

يكون الرجل جاهلاً أم سخيفاً إلى حد أنه يعرض الأمور بمثل هذه السطحية والتفاهة ؟

لا ريب فى أن لهذا القلم المسموم مأرباً آخر سينكشف إذا تتبعنا طريقة عرضه المشوهة لأهم الأحداث التى مرت بها أمتنا العربية :

« . . ومن ملاهى الوحدة دخول العرب حرب فلسطين الأولى فى عام 1948 بلا إعداد ولا تنسيق مسبقين . .

« . . ومن ملاهى الوحدة توقيع معاهدة الدفاع العربي المشترك فى 17/ 6/ 1950 ومن مآسيها معارضة العراق والأردن ثم انضمامهما إليها تآمراً عليها من الداخل . .

« وباسم الوحدة العربية خاضت مصر الحرب وضحت بالأموال وأثارت الأزمات ضد بريطانيا وفرنسا واسرائيل . وذلك من أجل قضايا فلسطين وتحرير بلاد المغرب والجنوب اليمنى وإمارات الخليج . . ولهذا تعرضت للعدوان الاسرائيلى البريطانى الفرنسى فى 29/ 10/ 1956 .

« لكن الملهاة الكبرى والمأساة المروعة ، كـانت ملهاة الوحدة المصرية ـ السورية فى مطلع 1958 ومأسـاة الانفصال السـورى عن مصـر فى خـريف 1961 . وفى هـذه السنـوات أثقلت مصر كاهلهـا وعطلت مسيـرة التنمية فيهـا بالأزمـات السورية المتلاحقة والابتزازات التى تتصاعد نهماً » .

إن الغرض من هذه الـطريقة الاستعـراضية المهـزوزة هو إظهار العرب بمظهـر الاختلاف الأبـدى الذى لا يـرجى له علاج . كذلك إظهار مصر بمظهر المتضـرر من كل عـلاقة لها مع العـرب . وهذا بـدوره يقود إلى النتيجـة الساداتيـة ـ الانفصالية ، بـأن من الخير لمصـر أن تنعزل عن العـرب وأن تحـل مشكلاتهـا بنفسها . ممـا يفضى إلى إيقـاع الاعتقـاد فى نفـوس القراء بـأن الاتفاق مـع اسرائيـل أفضل وأهـون من الاتفـاق مـع العـرب . وهـذه هى المقـولـة التى يسـوغ بهـا السـادات استسـلامـه للعـدو الصهيـونى وضلوعـه مـع المخـططات الأمريكيـة . ولا ريب فى أن من المستحيل نشـر مثل هذه الأفكـار الإقليمية الهـدامة دون أن ينبش السـادات انفصـاليى مصر من قبـورهم ، ليعلنـوا أن إسهـام مصـر فى تحرير الـوطن العربى من الاستعمـار القديم لم يعـد عليها إلا

بالخسارة ، وأن الوحدة بقيادة الرئيس جمال عبد الناصر لم تعد عليها سوى بالضرر .

وقد كنا نتساءل عن أسباب عجز الجامعة العربية عن أية مبادرة بناءة تحد من سيادات الدول العربية الأعضاء فيما بينها وبعض إزاء مشروعات النفع المشترك أو التصدى للتحديات المصيرية الكبرى ، وها نحن نكتشف بعض الأسباب لذلك من خلال وجود مسؤولين مثل سيد نوفل على قمة هرمها الوظيفى . فقد عمل فيها ثلاثين عاماً دون أن يؤمن لحظة بأهدافها القومية فى تحرير العرب وتوحيدهم وتطويرهم ، بل كان يفهم مجريات التاريخ العربي المعاصر من خلال مقولتى الملهات والمأساة . .

4ـ التطبيع الأدبى بين توفيق الحكيم ونجيب محفوظ

الأديب ضمير الأمة ولسانها . لذلك فإن الأدباء الأصليين هم المقاومون الحقيقيون لأى غزو ثقافى . وقد صمد أدباء مصر حتى الآن ضد عملية التطبيع الثقافى . ومما يدل على مغزى كبير فى المقاومة الأدبية للتطبيع الثقافى أن كاتبين فقط ، بين مئات الأقلام الطليعية التى تزخر بها

مصر العربية ، هما اللذان استجابا لدعوة السادات فى التطبيع الثقافى . ومن الملفت للنظر أيضاً أن الكاتبين قد أحيلا على التقاعد الأدبى وفقدا كل تأثير منذ فترة طويلة . لم يبق لهما من الروح الطليعية التى كانت تميز نتاجهما السابق سوى ذكرى تقابلها الأجيال باحترام لم يعودا يستحقانه .

ومع ذلك فإن الأسباب التى قدماها لتسويغ استجابتهما إلى دعوة التطبيع الأدبى تنم إما عن سذاجة أو عن تضليل مقصود .

أ ـ توفيق الحكيم . . وحملة الأقلام المتباعدون

فى 7/ 5/ 1979 أجرى المذيع الإسرائيلى أميل خزعل مقابلة مع توفيق الحكيم أذيعت من راديو إسرائيل .

فى المقابلة ، تحدث توفيق الحكيم عن ترحيبه بالسلام ، وقال إنه « حادث يتصل بالأديب والشاعر لأنه حدث يتصل بالقلب والمشاعر » .

وبما أنه عين حديثاً رئيساً لاتحاد الكتّاب ، ورئيس تحرير لمجلة « المثقفون » ، فقد أعطى التوجيه ـ عبر إذاعة

إسـرائيل ـ إلى كتّـاب مصر بـأن يبشـروا بـالسـلام والمحبـة للصهيونية :

« أمـا الكتّاب والشعـراء ، فـإن وظيفتهم هى تمهيـد الجـو للسـلام عن طـريق المشـاعـر . فـلا قيمـة للمـواثيق والمعاهدات دون إحساس ومشاعر طيبة .

« هـذه هى وظيفتنـا الآن فى كـل البـلاد التى كـانت متبـاعدة بـالأمس وأصبحت قـريبـة اليـوم . فلنبـدأ العهـد الجديد بالمحبة، بعيداً عن الشك والخوف والعداوة » .

ولكن هـل خـطر عـلى بـال « الحكيم » أن المحبـة تتحول إلى مأساة إن كانت من طرف واحد ، أو بـين طرفـين غير متكافئـين ؟ ومن الذى يـزرع الشك والخـوف والعداوة إن لم يكن هم الإسـرائيليون الـذين يقـومـون بغـزو لانهائى واستيطان بلا حدود ؟

قـد يبدو تـوفيق الحكيم طوبـاوياً فى تـطلعاتـه ، لكنه كان واقعياً تمام الواقعية حين سأله المذيع الإسـرائيلى .

« ــ وهل توجد بوادر من هذه المشاعر فى مصر ؟

فأجاب توفيق :

ــ لا توجد بوادر واضحة ، لأن الـوقت ضيق جداً .

وكل ما أستطيع أن أقوله هو أن الشعب المصرى شعب مسالم ، وشعب سلام . وأعتقد أنه سيصدر عنه دائماً أدب يعبر عن تلك المشاعر » .

ولم يفت المذيع الإسرائيلى أن يسأل الكاتب السابق عن رأيه فى مواقف الدول العربية من استسلام السادات . امعاناً فى بث التفرقة ، وتأصيل انحراف النظام الساداتى وعملائه عن الخط القومى .

كان جواب الحكيم انفصالياً بلباقة . غير أن لباقته لا تستطيع إخفاء انحرافه باتجاه ساداتى محض . قال الحكيم :

« أنا كتبت عن الحياد . لأنه من لوازم السلام أن تكون كل دولة . حرة فى اختيار ما يصلح لها ولمستقبلها . ويكون فى صالح ظروفها .

« وحتى فى العائلة الواحدة . عندما يستقل فرد بنفسه لا يسمح لأخيه بأن يتدخل فى شؤونه ، برغم المودة التى تجمع بينهما .

« والحياد عندى هو حياد فى التصرف السياسى ، وفيما يتعلق بشؤوننا التى تعنينا فقط . وقد وجدنا أن بعض

الدول تعمل على حل مشاكلها على حسابنا وحساب حريتنا . والعدل هو أن يكون الإنسان فيما يختص بذاته حراً فى تقدير مصالحه . وعليهم أن ينظروا لمصالحهم أولاً ، ثم ينظروا إلى مصالحنا بعد ذلك . هذا هو مفهوم الحياد عندى » .

بعبارة أخرى ، يقول توفيق الحكيم إن الدول العربية لا علاقة لها بتصرفات مصر . فإذا تساءلنا : وما جدوى الوحدة القومية ، والمصير القومى المشترك ؟ فلا بد أن يكون جواب الحكيم نفياً لوجود رابطة أو مصير قوميين ، ما دام مصراً على أن كل دولة حرة فى أن تفعل ما تشاء ، بصرف النظر عن الأذى الذى توقعه على مصالح دول أخرى . هذا هو مغزى إجابته .

ومن ناحية أخرى ، فإننا لو أخذنا بكلام الحكيم إلى نهايته ، لوجدناه يتضمن موافقة على تفتيت ذرى لكل فئات الشعب . إذ يصبح من حق كل فئة أن تتصرف بما يحلو لها ، وبما تراه مصلحتها مهما كان مضراً بمصالح الفئات الأخرى . ينطبق هذا على مختلف الطوائف والطبقات فى مصر . فهل يوافق الحكيم على تجزئة مصر ، تحت شعار الوقوف على الحياد ؟

أما عن علاقة آبا إيبان - وزير خارجية مصر السابق - بتوفيق الحكيم ، فيذكر هذا الأخير أن إيبان « كان له الفضل » في ترجمة رواية « يوميات نائب فى الأرياف » إلى اللغة الانكليزية عام 1947 :

« . . . لقد أصبحنا شريكين فى كتاب ، ثم فرقت بيننا ظروف الحرب . وأرجو - بعد السلام - أن يعاد طبع هذا الكتاب ، ونكتب له مقدمة مشتركة ، أنا وهو ، نتحدث فيها كيف أن حملة الأقلام اضطروا إلى الابتعاد » .

اضطروا إلى الابتعاد ! هل هى قصة حب وهجر وفراق أم أنها قضية غزو وتشريد واستيطان ؟ كيف يمكن لتوفيق أن يختزل علاقته بآبا إيبان ضمن هذه الحدود الفردية الضيقة ، وهى القصة التى تصلح - إذا ما أعطيت كامل أبعادها - لأن تكون رمزاً لعدوان الحركة الصهيونية وأطماعها وشراهتها التى تعصف بكل القيم الإنسانية فى سبيل مصالحها الشوفينية غير المشروعة ؟ وهل يحق لتوفيق الحكيم أن يتناسى قصة مصر مع جاحد مثل آبا إيبان ؟ جاء إلى مصر قبيل الحرب العالمية الثانية ، فآوته مصر وأكرمت مثواه ، وسهلت له جهوده العلمية التى كان يتخفى وراء ردائها ، فإذا به يتنكر لكل ذلك الكرم

المصرى الأصيل ، فينتقل إلى فلسطين ليقاتل الجيش المصرى ، وينذر حياته وفكره لتكريس العدوان على العرب ، فى الأمم المتحدة ومجلس الأمن ومختلف وسائل الإعلام الغربية والصهيونية : فى العدوان الثلاثى على السويس 1956، فى حرب فرنسا ضد الثورة الجزائرية ، فى عدوان حزيران 1967، فى حرب تشرين 1973 . ثلاثون عاماً من العدوان على العرب ومحاولة إذلالهم ، كان خلالها آبا إيبان الفكر الذى يسوغ العدوان . واللسان الذى يزين للعالم تقتيل العرب وتشريدهم واقتطاع أراضيهم ، والصوت العالى الذى يتواطأ مع دوائر الإعلام الاستعمارية على تغطية فرقعة المدافع وهزيم الطائرات وأزيز الصواريخ . ولو أن آبا إيبان من « حملة الأقلام » لأبصر ما تنطوى عليه قعقعة السلاح من أنين الجرحى وصيحات الثكالى وبكاء الأيتام والأيامى . لكنه من حملة السلاح وليس من حملة الأقلام . وهذا ما ينساه توفيق الحكيم أو يتناساه فى حديثه إلى راديو إسرائيل ، بل يضيف عليه أنه يطالب باستئناف العلاقة بين « حملة الأقلام » ـ السؤال هو : هل يرضى الآن آبا إيبان بذلك ؟ وكيف ستكون هذه العلاقة إن لم تكن علاقة التابع المهان بالغازى

المستبد ؟ وقد رأينا صورة عنها فى العلاقة بين بيغن والسادات !!

ولا يملك المرء إلاّ أن يشعر بالرثاء لتوفيق الحكيم وهو يحاول التملص من الإجابة عن السؤال :

ـ هل تهتمون باللغة العبرية فى مصر ؟

فكان جواب الحكيم :

ـ سيصبح من الضرورى أن تكون فى جامعاتنا دراسات للغة العبرية ، وكذلك الروسية واليابانية والصينية .

فالحكيم يعلم حق العلم أن المذيع الإسرائيلى يرمى من سؤاله إلى وضع العبرية فى مركز خاص بين اللغات ـ وهذا من طبيعة كل استعمار ثقافى . غير أن الحكيم حاول أن يعيد الاسرائيلى إلى صوابه فوضع العبرية بين عدد من اللغات النائية . ولكن هل يظن الحكيم أنه يستطيع فى كل مرة أن يعيد الغزاة إلى صوابهم ؟

ب ـ نجيب محفوظ . . وبناء حضارة بلا أرض :

افتتح الروائى نجيب محفوظ عام 1976 بتصريح

مشهور فى صحيفة « القبس » الكويتية ، طرح فيه بشكل صادم مقولة التنازل عن جزء من الأرض مقابل السلام . قال :

« ماذا يريد هؤلاء الناس . . هل يريدون استمرار الحرب إلى ما لا نهاية ؟ ألا يعلمون أن الحرب ضد الحضارة والمستقبل ، وأن السلم هو الذى يبنى الحضارة ويبنى المستقبل ؟

«إن على العرب أن يدركوا هذه الحقيقة ، وأن يخرسوا كل أصوات المزايدين التى ترتفع مطالبة بالمواقف المتطرفة واستمرار الصراع .

«إننى أريد السلام ، وأقبله حتى لو اقتضانا التنازل عن جزء من الأرض . فالأرض لا قيمة لها فى ذاتها . الأهم هو الهدف . ويجب أن يكون هدفنا هو بناء الحضارة . نحن نضحى بالإنسان وندفعه الى الحروب ليقتل من أجل الهدف . فلماذا لا نضحى بالأرض إذا كانت هذه التضحية ضرورية لتحقيق الهدف الأكبر ، وهو : السلام من أجل بناء الحضارة ؟»

المدقق فى حديث نجيب محفوظ يجد أنه قد تضمن

مفـردات كبيرة رصفت من غـير معنى ، كقولـه : « الحـرب ضد الحضارة والمستقبـل » فهذا الكـلام صحيح إذا أخـذت الحـرب بمعنى العدوان . أمـا المعتدى عليـه ، المستلب حقه فماذا يفعل ؟

ولـو ناقشنـا الفكرة فى تجـريدهـا المطلق لـوجـدنـا أن الحـرب بالفعل عمل وحشى ، بـالتـالى فهى ضـد الحضـارة القـائمـة عـلى الـظلم ـ وبهـذا المعنى ليست الحـرب ضـد المستقبـل . وهى لا تكون ضـد المستقبل إلّا إذا افتـرضنا أن العـرب سوف يخسـرون كل الحـروب التى سيخـوضـونها . وهـذا اسمه تنجيم ورجم بـالغيب ، لكنه ليس من التفكـير فى شىء .

بالمطلق ، كذلك ، نجد قوله « السلم هو الـذى يبنى الحضـارة ويبنى المستقبل » ليس أكـثر من تعميم فاسـد . إذ إن أكـثر من نصف المخترعـات البشريـة قد اختـرعت أثناء الحروب أو من أجلها ، ثم نقلت إلى استعمـالات سلمية . والعكس صحيح .

من ناحية عمليـة ، نجد أن العـدو استفاد من حـالة الحـرب ليخلق شعوراً بـالمواطنـة كان مفقـوداً بين اليهـودى

البولونى والألمانى والكردى والأمريكي واليمنى . كما استخدمت إسرائيل الحرب لتشد الأواصر بين اليهود فى فلسطين ويهود الشتات المنتشرين فى أنحاء العالم .

وأخيراً فقد استخدمت إسرائيل الحرب لتشد إليها مشاعر العالم الغربي بأكمله ، وتمنعه من تفهم حقيقة عدواناتها المتكررة على العرب بغية الغزو والتوسع . وهددت كل كاتب يخالف دعاواتها المغرضة بتوجيه تهمة الفاشية إليه .

على الجانب العربى ، كانت مكاسب الحرب ، ولو خاسرة ، أكثر من أن تحصى . فقد كشفت للعالم حقيقة العدو الصهيوني وعدوانه ، وحقوق الشعب الفلسطينى ، ودمجت القضية العربية بالقضية الفلسطينية أكثر من أى وقت مضى ، وشدت إلينا الاتحاد السوفياتى والمعسكر الاشتراكى وشعوب العالم الثالث . كما أن الحرب أيقظت فى العرب إحساساً ملحاً بضرورة الإسراع فى التحديث والتعمق فى العلوم التطبيقية وإنشاء الصناعات ، مما أدى إلى التحول الاشتراكى والإصلاح الزراعى . والحرب هى التى حولت الشعور القومى الذى استيقظ فى مطلع القرن باتجاه الوحدة بصورة عملية ملحة تجلت فى مناسبتين

رائعتين هما قيام الجمهورية العربية المتحدة بقيادة الرئيس جمال عبد الناصر ، والتضامن العربي الرائع كما أظهرته حرب تشرين المجيدة ، وهى الحرب التى جعلت مصير العالم معلقاً بإرادة العرب .

كل هذا والحرب مفروضة على العرب ، يخوضونها دفاعاً عن أراضيهم تارة ، وعن بحارهم وممراتها تارة أخرى ، وعن أجوائهم ومياههم ، وأخيراً عن خيامهم التى طردهم إليها الإسرائيليون ، ثم طردوهم منها ! !

إن موقف نجيب محفوظ مماثل لموقف توفيق الحكيم . كلاهما يشجب الحرب متجاهلاً أن الإسرائيليين هم المعتدون . وهذا يعنى أنه يوافق الخرافة التى نشرها الإعلام الصهيونى ـ الغربى فى أن العرب هم المعتدون أو أنهم هم الذين يرفضون السلام .

وأما قوله بأن « الأرض فى ذاتها لا قيمة لها ، الأهم هو بناء الحضارة » فهو قول ينطوى على مغالطة لا يتقصدها سوى مجنون أو خائن . وأعتذر عن استعمال هاتين الصفتين الأخيرتين لكننى لا أجد سواهما للتعبير عن تضليل بمثل هذا الحجم ، يقوم به واحد من كبار الأدباء فى

العربية ، علماً بأن مهمة الأديب هى توعية الأجيال بسلم القيم القومية لتقديم رؤ ية عن مصير الأمة فى مستقبلها . كما فعل دوستويفسكى وتولتسوى وديكنز . . ومن قبل هوميروس والمتنبى والمعرى . ولم نشهد أحداً من المفكرين والأدباء أو الأنبياء والزعماء والثوار ، دعا أمته إلى التخلى عن أرضها بدعوى أن الهدف هو بناء الحضارة . لأن الحضارة تبنى على الأرض ومن موردها ـ فإذا خسر شعب أرضه ومواردها ، فبماذا يبنى حضارته وأين ؟ إن الحضارات لا تبنى في السماء ولا فى الأحلام .

الرد الصهيوني على هذا السؤ ال يتلخص فى أن للعرب أراضى شاسعة ، ولا يضيرهم فى شىء أن يتخلوا عن بعضها . وهم حين يحاسبوننا على أرضنا القومية يحسبون علينا مساحات الصحارى فى الربع الخالى وبادية الشام وصحراء سيناء والصحراء الغربية ، إضافة إلى صحارى ليبيا والجزائر والسودان . لكنهم حين يغزون بلادنا بهجراتهم الاستيطانية لا يتنازلون بالسكنى فى هذه المساحات الشاسعة القاحلة ، بل يختارون الشريط الساحلى الضيق الخصيب والصالح للزراعة . حدث هذا الاختيار حين استعمر الفرنسيون الجزائر ، فطردوا

الجزائريين إلى الصحراء . ولما اكتشف موسوليني أن عدداً من الرومان أقاموا لبضعة قرون في ليبيا بدأت عملية استيطان الأراضي الليبية على الشواطيء الخصبة في طرابلس وبنغازي ، وتركوا الصحراء للعرب الذين قاتلوا إلى أن تمكنوا من طرد الغزاة في ليبيا والجزائر .

ومنذ أيام طرح مصير « اللاجئين الفلسطينيين » في « الكنيست » الإسرائيلي ، فاستحال إجراء أية مناقشة بسبب صيحات النواب الإسرائيليين : « ليذهب الفلسطينيون إلى السعودية » ـ وهو التعبير المهذب عن المخططات الغربية التي توضع منذ الحروب الصليبية إلى اليوم تحت شعار « ليذهب العرب إلى الصحراء » .

إن الاسرائيليين يعرفون أنهم جاؤوا الى المشرق لطرد العرب منه . لكن نجيب محفوظ لا يعرف . أو يعرف ويتجاهل . وبدلاً من أن تكون مهمته الأدبية تتضمن الحرص على الأرض والتحريض على تحريرها باعتبار أن الوطن هو أثمن ما تملكه الأمة ، نجده ينادي بالسلام « حتى لو اقتضانا التنازل عن جزء من الأرض » . وفي هذه الجملة فكرتان خطيرتان، أولاهما إقرار مبدأ التنازل عن الأرض . وهو مبدأ لم تقره أمة من الأمم في عصور

التاريخ كلها من قديمة وحديثة . لأن الوطن التاريخى لأية أمة هو ملكية قومية عامة ليس من حق الحكومات أو الأحزاب أو المراحل أن تجعل هذه الملكية موضع مساومة أو تسوية مهما كان حجم الكوارث التاريخية التى حلت بها ، كما نشاهد لدى المكسيكيين ضد الولايات المتحدة ، واليونان ضد الأتراك ، والأرمن والايرلنديين واليهود أنفسهم الذين ظلوا ثلاثة آلاف عام يردد واحدهم للاخر فى الأعياد : « العام القادم فى أورشليم » ـ علماً بأن اسمها « القدس الشريف » أو « بيت المقدس » منذ ألف وثلاثمائة وثمانين عاماً .

الفكرة الثانية التى يحملها شعار التنازل عن الأرض هو القبول بقومية بلا أرض . فالعرب أمة موجودة لكن أرضها ليست لها بل عليهم أن يقبلوا بأن تكون أرضهم مستباحة لكل طامع . وهذه الفكرة هى التى قاومها أجدادنا خلال الحروب الصليبية . فقد جندت أوروبا كل طاقاتها المادية والروحية خلال ثلاثمائة عام ، منذ مطلع القرن الحادى عشر إلى بدايات القرن الرابع عشر ، لاحتلال فلسطين . وقد انساحت الجيوش الصليبية على طول الشاطىء السورى من انطاكية إلى اللاذقية فحيفا

وعكا والقدس . لم يهلع أجدادنا ولم يخوروا . لم يظهر فيهم أديب مثل نجيب محفوظ ينادى بالتخلى عن الأرض أو يدعو إلى التنازل أمام العدو الغازى باسم الحضارة - وكان من حقهم أن يتحدثوا باسم الحضارة لأنهم هم ، العرب ، الذين كانوا يشكلون الجانب المتقدم والمستنير من الحضارة الإنسانية . ومع ذلك وجدوا أن من واجبهم الصمود والتحرر . نعم ، لقد حدثت هدنات ومعاهدات بين العرب والصليبيين ، لكنها جميعها لم تتضمن فكرة التنازل عن جزء من الأرض . لقد ظل «التنازع» على أى جزء من الأرض العربية ، وليس «التنازل»، جوهر العلاقة بين العرب والصليبيين فى حالتى الحرب والسلم إلى أن تم تطهير القدس الشريف من الغزاة ، وعادت إلى العرب أرضهم كاملة غير منقوصة .

ولو لم يفعل العرب ذلك ، ولو لم يقوموا بطرد الصليبيين لكان الصليبيون تابعوا إجلاء العرب عن أراضيهم وحلوا محلهم فيها . لأن الوطن التاريخى قطعة لا تتجزأ . فالتنازل عن أى جزء لا بد أن يجر إلى تنازل آخر ، وهكذا إلى النهاية المحتومة لأحد الطرفين المتنازعين .

كما أن إسرائيل لا تخفى أن حدودها المأمولة تمتد من الفرات إلى النيل . وهى تعتبر كل جزء تحصل عليه من الأرض العربية بمثابة تمهيد للحصول على جزء آخر : قبلت بحدود التقسيم لعام 1947 ثم اقتطعت مساحة أكبر من الأرض التى خصصها لها قرار التقسيم . وفى 1967 احتلت اراضى تعادل عشرة أمثال مساحتها فأعلنت قيام « إسرائيل الكبرى »، وهى ما تزال ماضية فى مشاريعها الاستيطانية إلى اليوم . بل إنها فسرت حتى « الحكم الذاتى للفلسطينيين » فى الضفة الغربية بأنه ينطبق على السكان ولا يشمل الأرض لأنها « أرض إسرائيل »!!

ثم إنها لم تكتف بكل ذلك ، فها هى تعمل على تقسيم لبنان . ولئن سكت العرب عليها فى لبنان عادت إلى تهديد سوريا وليس الأردن أو نفط السعودية بمنجاة من أطماعها ، بل حتى ولا سهول المغرب أو جبال الأوراس . أليس جابوتنسكى ـ معلم بيغن ـ هو القائل : « لو أن دولة حديثة نشأت فى أقصى المغرب العربي لكان فى ذلك تهديد لنا »؟ أما مناحيم بيغن ، شريك السادات فى جائزة نوبل للسلام لعام 1978 ـ فإنه يقول :

« أنتم ، الإسرائيليين ، يجب ألا تأخذكم شفقة أو

رحمة عندما تقتلون عدوكم . يجب أن تقضوا عليه حتى ندمر ما يسمى بحضارة العرب التى سوف نشيد على أنقاضها حضارتنا » .

حين يدعو نجيب محفوظ العرب إلى التنازل عن أرضهم فى سبيل الحضارة ، فإن ما يدعو إليه بالضبط ، هو قيام حضارة يهودية على أنقاض الحضارة العربية ، وعلى أرضنا القومية التى امتلكناها عبر التاريخ بشجاعة أمتنا وعدم تنازلها عن أى شبر منها .

إن خلخلة البنيان الثقافى على يد السادات فى مصر ، والفكر الانفصالى الذى يبعد مصر عن العرب ويقربها من إسرائيل ، والمناداة بالتنازل عن الأرض القومية مقابل لا شىء على الإطلاق سوى التخاذل والاستسلام . . . إن كل ذلك بعض من بواكير التطبيع الثقافي بين مصر وإسرائيل ـ وبالتالى فهو استعمار ثقافى كلى ، يؤدى إلى فصل مصر عن جذورها القومية ، وفصم عرى التضامن العربى ، وخروج مصر عن طريق التحرر وبناء القوة الذاتية إلى طريق الاستسلام والتبعية الثقافية والاقتصادية والعسكرية .



زبيغنيو بريجنسكي في كتابه :
بين عصرين : أمريكا في عصر التكنوترونيك

— 1 —



اذا اعتبرنا زبيغنيو بريجنسكى كاتباً او مفكراً ، فهو ، بدون شك ، أهم كاتب فى السبعينات ، بحكم منصبه كمستشار للرئيس الأمريكى السابق جيمى كارتر ، لشؤون الأمن القومى للولايات المتحدة . وكان قبل ذلك مديراً لـ « معهد أبحاث المتغيرات الدولية » ، وعضواً فى « معهد أبحاث الشؤون الشيوعية » .

وفى الواقع أن كتبه التسعة كلها تبحث فى شؤون الاتحاد السوفياتى العسكرية أو السياسية أو الايديولوجية أو الاقتصادية . يشذ عن ذلك كتابان فقط ، أحدهما عن « الأزمة والتغيير فى اليابان » ، والآخر ـ وهو الأخير ايضاً ـ جاء بعنوان « بين عصرين : دور أمريكا فى عصر التكنوترونيك » .

وفى هـذا الكتاب الأخـير يعرض بـريجنسكى منظوره عن التغيـرات التى ستطرأ عـلى العالم بفعـل الثورة العلميـة فى حقـل الاجهـزة الالكتـرونيـة ، التى يقـاس مـدى تقـدم الـدولة بـالاتساع فى استخـدامهـا . فقـد اجتـازت الـدول المتقـدمة ـ وفى طليعتهـا اميركـا ـ العصـر الصنـاعى وبلغت مجتمـع التكنـوتـرونيـك ، « وهـو مجتمـع تشكـل ثقـافيـا ، ونفسياً ، واجتماعياًبفعل التكنولوجيـا والالكترونيـات » . هـذه الآلات تبدأ من أجهـزة الإعـلام ، كـالتـرانـزيستـور والتلفزيون ، مروراً بالعقول الالكترونية والقنابل الذريـة ، لتنتهى بالأقمار الصنـاعية ومحـطات الفضـاء والصـواريـخ العابرة للقارات . . الخ .

الفكرة الأساسية فى نظرة بريجنسكى ـ وهو يصـر انها نظرة وليست نظريـة ـ « إن العملية الصنـاعية لم تعـد المحدد الـرئيسى للتغـير الاجتمـاعى » . فقـد استخــدم المجتمـع الصناعى المعرفة التقنية لتحسـين وسائـل الإنتاج ، وبـذلك كان تغير المجتمع ناتجاً ثانوياً تابعاً لهـا . أما فى مجتمـع التقنية الالكتـرونية ، فإن المعرفـة العلمية والتقنيـة لا تقتصر عـلى تحسـين وسائـل الإنتاج ، وإنما تمتد لتشمـل جميـع مجـالات

الحيـاة ، وتغير العـلاقات الاجتمـاعية والـدوليـة ، ونـظرة الإنســان إلى نفســه وإلى الآخــرين . وعـلى ذلـك ، فـإن المجتمع البشرى المعاصر ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

المجتمـع التكنوتـرونى (ويشمل الـولايـات المتحـدة والاتحـاد السوفيـاتى واليـابـان وبعض أوروبـا الغـربيـة) ، والمجتمــع الصنـاعى (ويضم مــا سبق مـع بقيــة أوروبـا الغربية) ، والمجتمع المتخلف فى العالم الثالث .

بدأت بوادر الثورة الصناعيـة فى القرن الخـامس عشر بـارتياد البحـار ، أما الثـورة الالكتـرونيـة فبـدأت بـارتيـاد الفضـاء . كـما ان اختـراع البـارود بـالأمس يعـادلـه اليـوم اكتشاف الفيزياء النووية . وفى مقابل اختراع الطباعـة نجد اختـراع التلفزيـون والاتصالات البعيـدة المدى . أمـا تأثـير كل من الثورتـين على المجتمـع ، فيمكن الموازنـة بينهما عـلى النحو التالى :

1 ـ فى الثورة الصناعية تحول المجتمـع من الإنتاج الـزراعى إلى الصنـاعى ، وحلت الآلة محـل الجهد العضـلى . فى المجتمـع التكنوتـرونى يقتصر التشغيـل الصنـاعى عـلى الخدمات ، وتحـل الأتمتة (التشغيـل الذاتى لـلآلات)

والسبـرنتيك (علم التحكم) محـل الآلات التى يشغلها أفراد .

2 ـ إن المجتمع التكنوتـرونى يجند الجمـاهير غـير المنظمـة ، بـواسطة الإذاعـة والتلفزيـون فيثير انفعـالاتهـا ويكبـح تفكيرها ـ لكن ذلك لا يقتصر على القضايـا الوطنيـة بل يتعداها الى القضايا العالمية .

لقـد قام المجتمـع الصناعى عـلى أنقـاض الاقتصـاد الزراعى والسياسة الاقطاعية ، فأسس نـظماً سياسيـة تعتمد عـلى انـدمـاج الفـرد بـالـدولـة القـوميـة . امـا المجتمـع التكنـوترونى فهـو « مجتمع مـا فوق القـوميـات والـدول » . فهـذه المؤسسات تـوحدهـا الأجهزة الإعلامية ، والعقـول الالكتـرونية ، وتـزايد المعـارف فى كـل حقـل ، بمـا يعجـز العقل البشرى عن استيعـابه ولـو ضمن اختصاص ضيق . وهــذا بـدوره يؤدى إلى تفتت الإدراك فى عقــل الإنســان الـواحد ، ممـا يجعل كـل فرد يصنـع منظورا خـاصاً بـه عن الحقيـقــة . وهــذا كله ـ بــرأى بــريجنسكى ـ لا يـلغى الايديولوجيا فقط ، بل معنى الانسان تجـاه ذاته ، فبـدلاً من أن يتقبل المرء نفسه بشكل عفـوى يعكف على التسـاؤ ل عن

ذكائه ، مواهبه ،إمكاناته، جاذبيته ، سلبياته . . وبذلك يخضع الانسان الداخلى لتحدى الإنسان الخارجى فى النفس الواحدة . ويزيد من الضغط على النفس أن الإنسان يبتعد عن الطبيعة ويسكن المدن المكتظة ، مما يقطع علاقاته الصحيحة التى تساعد على استقرار شخصيته ، وبذلك يصبح شخصاً بلا هوية فى محيط بلا هوية .

يضاعف أزمة الهوية توسع الفجوة بين الأجيال . فالعلاقات التقليدية تتقطع ، وتنهار القيم المستمدة من الأسرة . ويحلل بريجنسكى الثورة الطالبية التى حدثت عام 1968 على أساس أن الشبان لم يعودوا يشعرون بأهمية الرموز القديمة فى مجتمعهم . وهو يتنبأ بتزايد الصراع بين الاجيال لأن الشبان مدربون على التفكير المنطقى غير الايديولوجي ، ومسلحون بالوسائل الالكترونية فى التفكير بمساعدة العقل الالكترونى ومهيأون لتقبل المبتكرات الجديدة كأنظمة البرمجة والتخطيط . هؤلاء الشبان أُتيحت لهم فرصة استثمار مقومات التقدم العلمى ، وهى : الموارد اللازمة له ، الهيئات العلمية المتفرغة للبحث ،

القاعدة التعليمية الواسعة ، حرية البحث العلمى والإبداع .

يذهب بريجنسكى إلى أن الولايات المتحدة تفوق بقية دول العالم فى إيجاد هذه المقومات الاربع ، والإنفاق عليها . وبذلك تكون الولايات المتحدة طليعة الدول المتقدمة فى عصر التكنوترونيك ، ويدعم رأيه هذا بالعديد من الجداول الاحصائية المقارنة بين الدول المتقدمة ليثبت أن أمريكا هى دولة المستقبل أيضاً ، وليس الحاضر فقط. فالتأثير الأمريكى ينفذ من خلال تفسير القوانين الاقتصادية ، وانتشار المفاهيم الفكرية ، وتجميد المصالح البيروقراطية . ويجادل بريجنسكى بعنف ضد من يصفون النفوذ الأمريكى بالامبريالية ويقول إن المظهر العسكرى للقوة الأمريكية اتخذ مظهراً امبرياليا ليملأ الفراغ الذى ظهر في العالم بعد الحرب العالمية الثانية ، وانه في انحسار بطبيعة الحال . يعزو بريجنسكى « الازدهار الأمريكى » إلى التقدم العلمى ويتجاهل سياساتها العدوانية القائمة على نهب الشعوب وعرقلة تقدمها . وحين ننتقل إلى آراء بريجنسكى فى مستقبل العالم الثالث نراه يقول « إن العالم

الثالث ضحية الثورة التكنوترونية ، فسواء أسرعت الأقطار المتخلفة فى النمو ، أو تباطأت ، أو لم تتقدم على الإطلاق ، فإنها ستظل تحت وطأة الشعور بالحرمان الشديد » . خاصة وان الأقطار المتقدمة قد بدأت بمغادرة العصر الصناعي الذي لم تستطع الأقطار النامية ولوجه بعد ، وهذا ما سيولد لديها الشعور بالإحباط . ففى عام 1985 سيكون معدل الدخل القومى للفرد فى السنة ، بالدولار : 107 فى نيجريا ، 134 فى باكستان ، 112 فى أندونيسيا ، 169 فى الهند ، 185 فى الصين ، 295 فى مصر ، 372 فى البرازيل - بينما سيبلغ 6510 فى الولايات المتحدة ، 3080 فى اليابان ، 2660 فى الاتحاد السوفياتى . وهذا يعنى ان معدل دخل الفرد في الدول المتقدمة يتضاعف بين 1965 — 1985 ، فى حين لا يزيد عن 7 ـ 10% فى الدول المتخلفة ، خلال الفترة ذاتها .

ويرى بريجنسكى أن العالم الثالث سيتقدم نحو تحقيق الأمور الأساسية للبقاء : الإصلاح الزراعى ، الثورة الزراعية ، التوسع فى الإسكان والتعليم والخدمات الصحية ووسائل الإعلام ، كما أن المساعدات الدولية

تزداد ـ ولكن هذه التحسينـات لن تلغى الفروق بـين الدول المتخلفة والمتقدمـة ، بل سـوف تزيـدها . ذلـك أن التعليم سـوف يتوسـع ، لكن مستواه يهبط ، والبعثـات العلمية إلى الخـارج تزداد ، لكن عـدد الاختصاصيـين الذين يفضلون الهجرة إلى الغرب يـزداد أيضاً : الحقيقـة المذهلة أن الأقـطار النامية قدمت تقريباً نصف عدد المهنـدسين الفنيـين والعلماء والأطباء الذين هـاجروا إلى الـولايات المتحـدة فى السنة التى تنتهى بحــزيــران 1967: 10,254 من أصــل 20,760 ومـن المتوقع أن تزداد هذه النسبة عاما بعد عام » .

ويبــدو أن المصيبـة فى الــذين لا يعــودون أخف من المصيبـة فى الـذين يعـودون . لأن هؤلاء لا ينسجمـون مـع مجـتمـعهـم من جـهـــة ، ولا يجــدون الإطــار العـلمى أو الصناعى الذى يستوعب خبراتهم ، من جهة اخرى .

فى العالم الثالث ، ما تزال جماهير الفـلاحين الأميـين المنهمكين فى العمل اليدوى ، تشكل أوسـع قاعـدة فى الهرم الاجتمـاعى ؛ ومعتقداتهـا التقليديـة تعـرضت لصـدمـات نفسيـة شديـدة بفعـل الإذاعـة والتلفـزيـون والصحـافـة ، بحيث يصـح القـول إن الثـورة الـذاتيــة تسبق أى تغـير فى

المحيط الموضوعى ، وتخلق حالة من الاضطراب والغيظ والغضب والحنق والانفجار . فكلما أسرعت الحكومة فى تنوير الشعب ، أسرع الشعب فى الثورة عليها ، بسبب وعيه بمدى الحرمان الذى يعانيه . ولئن كانت طبقة الفلاحين أميل إلى الهدوء بفعل روحها المحافظة نسبياً ، فإن سكان المدن الكبرى يتألفون فى أغلبيتهم من فلاحين هاجر آباؤهم إلى المدينة ، ونال أبناؤهم قسطاً بسيطاً من التعليم ، بحيث صاروا يشكلون « الانتلجنتسيا المزيفة » . وهى تؤلف 3% من السكان الشبان المؤهلين تأهيلاً جامعياً متخلفاً . تعيش هذه الطبقة فى مستوى حياة متدنٍ ، وتعتنق عقائد متطرفة تسعى بها إلى انتزاع السلطة والمكاسب من الاختصاصيين والسياسيين فى أعلى الهرم . وعلى الرغم من أن « الانتلجنتسيا المزيفة » تخضع لقانون : كلما قلت الثقافة ازداد التطرف ، فإنها هى التى تقدم القيادات التى تثير حماسة الجماهير . وهى الطبقة التى تبشر بالعنف الثورى وتمارسه .

ويتوقع بريجنسكى أن يتحول التعارض بين الشرق والغرب ليدور على محور قطبى فيصبح صراعاً بين الشمال

والجنـوب . ويقول إن هـذا ممكن الحصول ، « إذا أصـرت الشعوب المتخلفة على عداوتها للشعوب المتقـدمة » (. . .) وهـو يقرر هـذا الموقف بعـد أن رفضت الدول الصنـاعية أن تخصص ولو 1% من دخلها القومى للشعوب المتخلفة .

ومهمـا يكن من أمر ، فإن العـالم مـا يـزال ينقسم إلى مجتمع زراعى متخلف ، وآخر صنـاعى متقدم ، ثم أضيف إليهـما مجتمع جـديد تمـاماً هـو المجتمع التكنـوترونى . هـذا الانقسام يؤدى إلى توسيع الفجوة بين المجتمعات الثـلاثة ، وإلى احتكـاكـات دائمـة فيـما بينهـا ، قـد تنتهى بفـوضى دولية . هذا سيخلق عـلى الأقل جيـوبا كبـرى للاضـطراب والفـوضى فى العـالم ، وفى أسـوأ الأحـوال ، فـإن انعـدام الاستقـرار فى العـالم الثـالث قـد يجـر الأمم المتقـدمـة إلى الاشتبـاك فيما بينهـا بخصومـات يكون لهـا عـلى العـلاقـات الأمريكية ـ السوفياتية ما كان للصراع على البلقان من تأثير على النظام الأوروبى قبل الحرب العالمية الأولى .

إن نـظرة بريجنسكى إلى المستقبـل، تتسم بالتـأكيد عـلى القلق والتوتـر وانعدام الثقـة بـالـذات والمجتمـع ، فى

العـالم المتقدم . أمـا مصائب العـالم المتخلف فلا تحـظى منه بغير البرود والشك .

بريجنسكي يتنبأ بنهاية الدين والقومية والشيوعية في عصر التكنترونيك

— 2 —

يرى بريجنسكى أن العصر الجديد الذى تخلقه الأجهزة الالكترونية فى مجتمعات الدول المتقدمة ، سوف يجعل هذه المجتمعات مكونة من أفراد جامحى الفردية ، متحررين فى معتقداتهم من المؤسسات القديمة التى قامت لتمثيل تلك المعتقدات . فوسائل الإعلام والتعليم، سوف تجعل الناس يغيرون معتقداتهم بسرعة ؛ وهذا يؤدى إلى التقليل من جاذبية الشعارات الثورية - إلاّ فى دول العالم الثالث الشديدة التخلف .

إن وعى الإنسانية . بمصير مشترك يدفعها - حسب رأى بريجنسكى - إلى البحث عن رؤيا كونية شاملة وجديدة ، تتجاوز التنافس التقليدى بين الأديان والعقائد . فالأديان الكبرى وسعت أفق الإنسان عمودياً بأن وصلته بإله لكل البشر ، وأفقياً بأن حددت التزامات

الإنسان تجاه الإنسان . ولكى تحكم هذه الأديان قبضتها على روح الإنسان وأفعاله ، تبلورت فى عقائد منظمة فى مؤسسات تسيّر فعاليات الإنسان . هذه المؤسسات عبَّرت عن قوتها فى الحروب المقدسة التى خاضتها . غير أن المؤسسات التى احتوت العقيدة والفعالية معاً جمدتهما ، مما أدى إلى نشوب صراع مرير بين الإيمان والمؤسسة . ويرى بريجنسكى أن الكنيسة المسيحية اليوم تحتاج إلى إصلاح يعيد للمقومات الدينية حيويتها فى توجيه الحياة البشرية المعاصرة . ويركز فعاليتها على « المشكلات الاجتماعية التى تتراوح من الفقر وانعدام العدالة الاجتماعية إلى التبشير بالمساواة بين الدول والأمم »، خاصة وأن اهتمام رجال الدين بالمسائل الاجتماعية ـ وخاصة فى أمريكا اللاتينية ـ يهدد سلطة الكنيسة على رجال الدين أنفسهم ، ويكاد يخلق انقساماً بين مختلف المراتب الكنسية حول مهمة رجال الدين ورسالة الكنيسة ، فى الوقت الذى يتوجب فيه على مختلف الكنائس ان تتحد ، لمواجهة عالم يتنكر للإيمان ولكل أشكال المؤسسات العقائدية . فوحدة الكنيسة وتسييسها طريق لإصلاحها .

فيما يتعلق بالديانات الأخرى ، يرى بريجنسكى أنها

« كانت أكثر سلبية من المسيحية . فى الممارسة والنظرية . على السواء »، وذلك من حيث الجهد الذى بذلته لتحقيق المساواة بين البشر أمام الله :

« فالبوذية لا تشتمل على أوامر من أجل التغيير الاجتماعى ، لكنها تقدم الخلاص من الواقع . والنيرفانا ـ بعكس المسيحية ـ لا تقوم بدور النابض الذى يدفع الفعالية الزمنية . كذلك فإن السيطرة الشديدة للقدرية على الإسلام قد عملت ضد وجود ولو ذلك العنصر من التوتر بين « الطمأنينة الأبدية » و «تحقيق ملكوت السماء على الأرض » ـ ذلك العنصر البالغ القوة فى المسيحية ، والذى استثار فعاليتها المكبوتة » .

هذه الآراء السريعة تتجاوز ثلاث حقائق ، اولها أن الإسلام هو ما يصنع منه المسلمون ـ فأى دين مرتبط بعلاقة جدلية مع مستوى معتنقيه . بالتالى فإن عصر الركود الطويل بعد الازدهار السريع ، هو عصر مرت به كل الأديان ؛ وقد أحسن المؤرخ توينبى حين أسماه : « عصر الارتداد الحضارى » . بمعنى أن عرب صدر الإسلام كانوا أكثر وعياً لشروط إنشاء الحضارة ، وأعمق

تجاوباً مع التحديات الحضارية ،من عرب هذه الأيام .
وأخيراً ، فإن القرنين الأخيرين لم يشهدا فقط مرحلة
الاستعمار الأوروبى، بل رافق الاستعمار سيطرة ثقافية
كانت غايتها « تغريب » شعوب العالم الثالث عن هويتها
القومية ـ الحضارية . فلما زالت السيطرة الغربية المباشرة
بدأت هذه الشعوب تسترد مقومات هويتها ، كما نشاهد فى
الصين وإيران والهند والجزائر .

والغريب أن بريجنسكى الذى يشدد على أهمية
العامل القومى ، ينسى أن الممارسات الدينية جزء من
التراث القومى . بل إن بريجنسكى يرى العامل القومى فى
طريقه إلى الاضمحلال أيضاً . فالمجتمعات القومية نشأت
بفعل وجود وحدات جغرافية طبيعية ولغة ومعتقدات
مشتركة بين فئات متعددة من الناس . من هذا التطابق
تولّد مفهوم المصلحة القومية القائم على الأمن والاقتصاد
والعلاقات التقليدية فى العداوة أو الصداقة : « وقد ظل
هذا ممكناً ما دامت الأمم متباعدة عن بعضها وبعض
تباعداً كافياً فى الزمان والمكان ، بما يفسح لها المجال
للمناورة والبعد اللازم للاحتفاظ بهوية منفصلة » . ولكن
هذا الانفصال لم يعد ممكناً اليوم لا فى حالة الحرب ـ حيث

لا وجـود لحـدود آمنـة فى عصـر الصـواريـخ ـ ولا فى حـالـة السلم ، لاتساع حجم التجارة والمـواصلات والإعـلام بين الدول . فالمفهـوم القومى لم يكن أقـوى مما هـو عليه الآن فى التاريخ كله ـ ومـع ذلك فـإن تحقيق المصلحة القـومية لا يتم إلا بتعـاون يتجاوزهـا هى بالـذات ! ! لقد انشقت القـومية العلمـانية عن الـديانـة العالميـة . وبدلاً من أن يضـع المـرء مصيره بين يـدى إلهه . وضعـه فى يدى الـدولة القـومية التى جعلتـه يقـرر مصيـره بنفسـه عن طـريق المـؤسسـات الـديمقراطيـة . وبذلـك حلت المساواة بـين المواطنـين أمـام القـانون ، محـل المسـاواة بينهم أمـام إلههم . تـرافق ظهـور القومية مع الثورة الصناعية . مما سهل حشـد الجماهـير وراء الآلـة لزيـادة الإنتاج خـدمة لـلأهـداف القـوميـة من دفـاع ورفاهية معاً ، وأوجد السـوق العريضـة اللازمـة لاستهلاك الصنـاعة المحليـة . أما فى العصـر الجديـد فتكاد تغـدو كل المشروعات دولية .

على أنه ، إذا كـان القرن التـاسع عشـر شهد سيـطرة فكـرة الحريـة ، فإن القـرن العشرين شهـد ظفر المسـاواة . ففى القـرن الماضي كـانت حريـة الفـرد تتجسـد فى حـريـة أمتـه ، ولم تكن المساواة بـين الأمم مبدأ عمليـاً . أمـا اليـوم

فكل مثقف فى العالم يعرف أن الحرية تتعرض للتهديد فى غياب المساواة ، على الصعيدين الفردى والقومى :

« إن الرغبة فى المساواة هى التى جعلت معظم قادة الدول الجديدة يعتنقون الاشتراكية . فهم يرون فيها أداة لتأكيد الموضوعات المشتركة بينهم : ازدهار الثقافات المميزة لأممهم ، تقدم الاقتصاد القومى ، والتقليص التدريجى لعدم المساواة فى الداخل والخارج » .

إن الجهد الاشتراكى لسد الثغرة بين الأغنياء والمعدمين قد يثير أشكالاً من النزعة العرقية تتجلى فى طرد الأجانب ، كما فعل عيدى أمين حين طرد الأسيويين من شرق إفريقيا ، وكما تفعل فييتنام الآن فى طرد الصينيين من بين صفوفها . فإذا كانت القومية قد أفادت الإنسان فى زيادة تحديد هويته ، فإنها لم تسعفه كثيراً فى فهم الواقع . إن الأديان والقوميات اهتمت بالإنسان الباطنى أكثر من اهتمامها بالإنسان الظاهرى . وبذلك ظلت فى خط معاكس للتقدم العلمى . أما النظرية التى مكنت الإنسان من فهم العالم ، فهى الماركسية .

يقول بريجنسكى :

« تمثل الماركسية مرحلة أكثر حيوية وإبداعاً [من الأديان والقوميات] فى إنضاج رؤ ية إنسانية شاملة . إن الماركسية هى فى وقت واحد إنتصار للإنسان الظاهرى الفعّال على الإنسان الباطنى السلبى ، كما أنها انتصار للعقل على الإيمان » .

لقد ولدت الماركسية نتيجة الاضطراب الاجتماعى الذى أحدثته الثورتان الصناعية والقومية « فقدمت أداة فكرية فريدة لفهم القوى الأساسية فى عصرنا واستخدامها . . كما أنها صهرت العمل السياسى بعناصر أخلاقية قوية ، وشكلت الأساس لهجوم مدعم ضد المؤ سسات الاجتماعية القائمة قبل العصر الصناعى ، ورفعت راية الأممية فى عصر خاضع باطراد للتباغض بين القوميات » . فهى مرحلة من الزواج بالاكراه بين الإنسان والتقنية الحديثة . لذلك فإن أهميتها تأتى من تأثيرها الثوري المتسع باطراد . ولا يتردد بريجنسكى فى تقسيم تاريخ الإنسانية إلى ثلاث مراحل : الديانات الكبرى ، القومية ، الماركسية ؛ ليقول إن فى هذه المراحل الثلاث « كان انتشار المفهوم مشفوعاً بانقلاب فى الممارسة » . ويرى أن سبب عجز هذه المعتقدات عن الاحتفاظ

بنقاوتها ، إنما يرجع إلى تجسدها فى مؤسسات . فالعلاقة اليوم بين الأفكار والمؤسسات مضطربة . لأن المؤسسات تضيق ذرعاً بالأفكار الجديدة لئلا تؤدى إلى نسف المؤسسات ، كما أن المثقفين يخرجون على المؤسسات لأنها متحجرة . وبما أن العصر الجديد يعتمد على سرعة الاتصالات ، فإن المحرمات التقليدية أصبحت عرضة لأن تجتاحها رؤى جديدة عن حياة متحررة . إن جميع أنواع المؤسسات (الدينية والقومية والعقائدية) هى فى مواقع الدفاع لأنها لم تعد تستجيب للمشكلات المعاصرة . فهى تعطى للتنظيم أولوية على الأفكار التى تسعى إلى تطوير الماركسية ، علماً بأن التنظيم وجد لخدمة الأفكار ، وليس العكس . وبالنتيجة ، فالمفكر الماركسى لا يستطيع أن يظل شيوعياً إذا أراد أن يظل مفكراً .

ويشير بريجنسكى إلى اتفاق الأحزاب الديمقراطية والشيوعية على فوائد الضمان الاجتماعى والرفاهية ، مما يلغى الضرورة العقائدية لوجود المؤسسات ، على اعتبارها ستصبح عقبة فى وجه التغير الاجتماعى الذى يجلبه تكاثر الاقتصاديين والعلماء المديرين - إن هؤلاء فى صدام دائم مع البيروقراطيين الحزبيين الذين هم أقل علماً وخبرة ولكن

سلطاتهم أوسع : إن البيروقراطيين يرون أن المحافظة على سلطاتهم ومصالحهم أهم من الدوافع الفكرية نحو التقدم . فأزمة المعتقدات ذات المؤسسات هى آخر مرحلة فى التقدم نحو حياة علمانية . أن تعقد العلم وانتشار الشك ، دعمهما فى العصر التكنترونى التأثير الانطباعى للوسائل السمعية ـ البصرية ـ وهذا كله يعمل ضد المواصفات التنظيمية والعقائدية لأية ايديولوجيا . وبهذا المعنى يصح أن نصف نهاية القرن العشرين بأنه نهاية الأيديولوجيا .

للتدليل على أن الإنسان المعاصر فى الطريق الى الخلاص من جميع أنواع العقائد الشاملة ، يستشهد بريجنسكى مطولاً بالحوار الذى عقد بين المفكرين المسيحيين والشيوعيين بدءاً من عام 1965 فصاعداً . وفيه قال روجيه غارودى :

« بدوننا ، نحن الشيوعيين ، أخشى أن تظل محبتكم المسيحية ، على روعتها ، غير فعالة . وبدونكم أنتم ، معشر المسيحيين ، أخشى أن يقع نضالنا ، مرة أخرى ، فى سماء بلا نجوم » .

ويعلق بريجنسكى على أن مجرد عقد هذا الحوار ينطوى على برهان بأن العقيدتين تنازلتا ـ ولو بشكل غير رسمى ـ عن ادعاء كل منهما أنها تملك الحقيقة المطلقة ، كما أنه ـ الحوار ـ حجة لا تدحض على تميع الحدود بين العقائد القائمة . فمن المستحيل فى عصر النسبية الفكرية أن تبحث عن رؤ يا شاملة ضمن مؤ سستين إحداهما تحرِّم استخدام وسائل منع الحمل ، والأخرى تهدر دم المفكرين « التحريفيين »! ففى كلا العالمين « شعور بالحاجة إلى تركيب فكرى جديد » خارج إطار المؤ سسات . هذا التركيب محصلة تفاعل العلمى مع الروحى ؛ فيلبى اهتمام الفرد بالتقدم ، ولكن دون ايديولوجيا ؛ ويشبع حاجته إلى التدين ، ولكن دون تنظيمات دينية .

الحجة الأخيرة التى يسوقها بريجنسكى على موضوعته فى انهيار العقائد التقليدية هى أن عصرنا لم ينتج مفهوماً خاصاً به عن الثورة ؛ لم ينتج « استراتيجية للعمل غرضها أن تحل محل القيم والمؤ سسات العاملة إطاراً جديداً ، أى منهجاً للتغيير وجوهر هذا التغيير » . فالعصر الصناعى أنتج المفهوم الماركسى الذى صار يطبق على كل قطر يدخل

مرحلة التصنيع . أما العصر التكنترونى فهو خارج كل الأطر السلطوية :

« إن التغير العلمى السريع ، والانفجار التعليمى المكثف ، وحشد وسائل الاتصالات ، عوامل تفضى إلى معتقدات متقلبة ، وردود فعل متفاوتة ، وتخلق وضعاً تكون فيه المشاعر الذاتية أكثر أهمية من الالتزام الجماعى لأى مخطط للتنظيم أو العمل الاجتماعى . »

فالعلمانية الصحيحة تتطلب ألّا تقوم السلطة بدعم أية نظرة عالمية ، أو تقليد ، أو ايديولوجيا ، وتمنع وجود أخريات . وهذا بدوره يتطلب مؤسسات سياسية واجتماعية قائمة على التعدد ، وليس على الحصر . والمجتمع العلمانى المثالى يحتاج إلى مقدار كبير من المسؤولية والنضج الاجتماعى عند كل فرد على حدة ، باعتبار أن التحول من العقيدة التقليدية الواحدة إلى تعدد المعتقدات هو شرط مسبق للحرية ، وحالة ملازمة للإبداع .

هنا لا بد من التلبث قليلاً لمناقشة آراء بريجنسكى على صعيدى النظرية والممارسة . فقد تكون التعددية

شرطاً للحرية ، ولكنها ليست بديلاً عن العقيدة أو عن الإيمان . وهو يرى أن الإيمان فردى وخارج عن المؤسسات ، ولكن كل مبدأ يحظى بالانتشار لا بد من أن يفرز المؤسسات التى تجسده ، والأشخاص القائمين عليها . إن هذا من صميم طبيعة تنفيذ الفكرة على صعيد الواقع . كما أن بريجنسكى حين يبشر بالفعالية الذاتية للفرد المتحرر ينسى أنه لا العقد الاجتماعى ولا المعتقدات الجماعية يسمحان لفعالية الفرد بالتأثير على الواقع إذا ظل معزولاً ضمن أطره الذاتية ـ التأملية . ثم إن غياب المؤسسات السياسية والدينية والاجتماعية قد يخلق فراغاً لا تملؤه إلّا سلطة دولة خالية من أية عقيدة ، وبالتالى فهى بالضرورة سلطة بوليسية مفرغة من الهدف ـ أو مجموعة من سلطات متضاربة ، أى عصابات . وقد رأينا نموذجاً لها على أرض الواقع ، فى لبنان .

إن بريجنسكى يضع الأديان والمبدأ القومى والعقيدة الماركسية على صعيد واحد . وهذه الأقانيم الثلاثة نشأت فى مراحل متعددة من تاريخ الإنسانية . كما يشير بريجنسكى ـ لكنه لا يستنتج أن لكل منها وظيفة مختلفة عن

الأخـرى ، بدليـل بقائهـا إلى اليوم ، وبعـد زوال الـظروف التاريخية لنشوئها . وإذا كان بعض « العقائديين » يعـاملون الشيـوعيـة معـاملة الـدين : فهـذا خـطأ منهم وليس فى الشيـوعية ولا فى الـدين . الدين تعبـير عن فعـاليـة روحيـة قـائمة فى الإنسـان مثلها مثـل فعاليـاته الأخـرى الفكريـة أو الجسدية . أمـا الشيوعيـة فتنظيم اقتصـادي محض . والمبدأ القومى تنظيم لجماعة من النـاس يربط بينهـا اللغة والتـاريخ والثقافة والأرض . . الخ . وهذا التمـايز بـين المجموعـات البشرية طبيعى لأن خصـوصيتها تسـاعد عـلى تعدد نـواحى الإبـداع فى الثقـافـات البشـريـة . لكن بـريجنسكى الـذى يؤمن بالتعدد يسعى من جهة أخرى إلى إلغـاء العناصـر التى تؤدى إلى وجـود التعـدد المنشـود . فهـو يلغى الكنيسـة والحـزب والـدولـة القـوميـة ـ ومـع ذلـك يـريـد أن يحتفظ بـالمسيحية والمـاركسية والقـومية عـلى أساس اعتقـاد فـردى حر . فأين يفضى بنا هذا عـلى الصعيد العمـلى ؟ إن إطلاق الحـرية الفـرديـة فى شؤون الـدين ، فى الـولايـات المتحـدة بـالذات ، أدى إلى نشـوء ظواهـر جنونيـة كان آخـرهـا تـوم جونز الذى ذبح ألفاً من أفراد طائفته !

وإطلاق الحرية الفردية فى الشؤون العقائدية أدى إلى سقوط حركة اليسار الجديد فى الولايات المتحدة ، والحركات الطالبية فى أوروبا ، وإطلاق الحرية القومية أدى إلى أن « تفلت » إسرائيل فى الشرق العربى ، وجعل ماوتسى تونغ يطالب بكل الأراضى الآسيوية التى يملكها الاتحاد السوفياتى - وإذا وافقه بريجنسكى ، من موقعه الخطير ، على مطالبه ، فذلك يعنى نهاية العالم !

لقد أثبتت الوقائع خطأ بريجنسكى فى تقدير دور الدين فى العالم المعاصر . فهو يحاج بأن دور الدين يتضاءل فى حياة الإنسان ، وأن الدين لن يعود إلى لعب دور فعّال إلّا إذا خضع للمزيد من التسييس . وهو يرى أن أكبر دور يستطيع رجال الدين الكاثوليك أن يلعبوه فى أمريكا اللاتينية ، هو أن يسبقوا الشيوعيين فى تحريك الجماهير للثورة من أجل الديمقراطية والاشتراكية . لكن البابا البولندى ، الذي عاش حياته فى المعسكر الاشتراكى ، أكد أن الدور الأول لرجال الدين هو تمكين الإيمان من قلوب الناس ، قبل أى دور اجتماعى آخر - وذلك فى زيارته للمكسيك عام 1979 .

الخطأ الثانى أن بريجنسكى زعم أن « القدرية المتأصلة فى الإسلام» تمنعه من تحريك الجماهير . وهذا زعم يكذبه التاريخ فى الماضى ، وثورة الإمام الخمينى فى إيران حالياً .

هذا التخطيط النظرى الواضح ، يُخفى هدفاً أوحد وحيداً : إلغاء مسوغ الوجود للأحزاب الشيوعية ، ومن ورائها الدولة السوفياتية ، التى هى أول دولة فى العالم قامت على أساس النظرية الماركسية ، ومارست مبادئها على صعيد التطبيق العملى . بريجنسكى يرى أن هذه الدولة ليس لها دور تاريخى :

« مأساة الشيوعية ، من حيث هى منظور شمولى ، أنها جاءت مبكرة جداً ومتأخرة جداً . كانت أبكر من أن تغدو مصدراً لأممية حقيقية ، لأن الجنس البشرى كان فى أول يقظته على الوعى القومى ، ولأن وسائل الاتصال التقنية المتاحة لم تكن مهيأة بعد لنشر منظور عالمى . وجاءت متأخرة جداً على الغرب الصناعى لأن المفهومات الليبرالية والقومية الإصلاحية لبت الدعوة الإنسانية من خلال الدولة القومية . جاءت مبكرة جداً على الشرق قبل

الصناعى حيث استعملت كمنبه ايديولوجى للجماهير النائمة ، فأثارت فيهم نعرة قومية راديكالية مفرطة . »

ولكن الشيوعية ، المتأخرة جداً بالنسبة للغرب ، والمبكرة جداً بالنسبة للشرق ، حطت رحالها فى منتصف الطريق بينهما . وهذا ما يفسر اصطباغ هذه العقيدة الغربية بالصبغة الشرقية . لكن بريجنسكى يرى أن لينين أخذ أسوأ ما فى الشرق ؛ فهو يأخذ على لينين :

« ميله إلى الجمود العقائدى ، والعنف ، والتآمر ، وإخضاع الفرد للحزب ، وتشدده ضد المنشقين » .

وهذا كله مهد الطريق أمام ستالين وجعل معارضته مستحيلة داخل الحزب . إن أهمية ستالين فى كونه سيطر على ثلثى تاريخ الدولة السوفياتية ، وقام بكهربتها وتصنيعها . ولا عبْرة بما يقال عن وحشية ستالين ومذابحه في سبيل فرض التصنيع والزراعة الجماعية عبر النظام السوفياتى لأن شعوب الاتحاد السوفياتى هى التى دفعت الثمن ، فى حين ينسى بريجنسكى أن « إنسانية » التصنيع فى أوروبا الغربية لم تأت بسبب المبادىء الليبرالية ، وإنما لأن

شعــوب المستعمـرات هى التى دفعت الثمن . وعــلى كـل حــال فإن أهميــة ستالـين لا تأتى من طـول مدتـه فى الحكـم . بل من تأثيره المستمر إلى اليـوم . وفى هذا المجـال يأتى حكم بـريجنسكى لصالـح ستالـين فى نقطتـين عمليتـين : « كـان البـديل الـوحيد عن ستـالـين نـظام ديكتـاتـورى امبـريـالى وعقيـدة شوفينيـة متشـددة » فى الـداخـل « وعـلى الصعيـد الدولى فإن الستالينية أدّت إلى أن تخلق فى القـادة السوفيـات حالة عقلية ضد ضم بولندة وفنلندة، وربما بقية دول أوروبا الشـرقية . إلى الاتحـاد السوفيـاتى . وهذا اغـراء قد يصعب مقاومته عنـد قادة قـوميين مؤمنـين بالقـومية السـلافية تحت قيادة روسيا » .

والنقطة الثانية أن سياسة ستالين أدّت إلى خلق دولة « هى الأولى بين الأمم المتقدمـة فى عدد الأطبـاء بالنسبـة إلى كـل مائـة ألف من السكان ، كـما أنها تقدم أعـلى ضمانـات اجتمـاعيـة » . ثم يمضى بـريجنسكى فى تعـداد أوجـه تخلف الاتحـاد السوفيـاتى عن بقية الـدول المتقدمـة بعد ستـالين ، فتـرتيبه الأربعـون فى التعليم الأولى والثانـوى . والسـادس

والعشـرون فى الإعـلام ، والثـالث عشر فى الصحـة العـامـة - من بين 129 بلداً .

فـإذا انتقل إلى عصـر التقنيـة الالكتـرونيـة ، حسب احصـــاءات 1968 ، وجـد أن الــولايــات المتحــدة تمتلك 70,000 كمبيـوتر بينـما الاتحاد السـوفياتى يمتلك 3500 فقط . وبالرغم من اعترافه بـأن «إنجازات السـوفيات فى الفضـاء والتسلح والنمـو الصنـاعى مـذهلة » ، فـإنـه يصـر عـلى أن الاتحـاد السوفيـاتى سوف يستمـر فى التخلف عن الـولايـات المتحدة أكثر فأكثر ، وأن الزمن لا يعمل فى صـالحه أبـداً . السبب ؟ طبيعـة النظام السـوفياتى بـالذات . فهـذا النـظام بدأ ثورياً وانتهى بيروقراطياً .

بريجنسكي يتنبأ
بتحول العالم الثالث إلى الشيوعية
وتحول المعسكر الشيوعي إلى أمريكا



رأينا أن بريجنسكى يحمل البيروقراطية السوفياتية تبعة تخلف الاتحاد السوفياتى عن الولايات المتحدة . وهو يرى أن هذه البيروقراطية فقدت ثوريتها لحظة أن تخلى ستالين عن شعار الثورة العالمية الدائمة ، ورفع شعار « الاشتراكية فى بلد واحد » ، يقول بريجنسكى :

« كانت الاشتراكية فى بلد واحد ـ وهى جواب ستالين الشهير على دعوة تروتسكى إلى الثورة الدائمة ـ انقلاباً ذكياً ، فقد صهرت التطلعات الايديولوجية الأصيلة عند الثوريين المخلصين باستمرائهم الجديد للجلوس فى المكاتب . الاشتراكية فى بلد واحد سمحت للحكام الجدد أن يحتفظوا لأنفسهم بالمناصب وبالمبرر الايديولوجى معاً » .

فالنظام السياسى غدا المصدر الرئيسى للتغير

الاجتماعى ، ووضع الأهـداف ، وتحديـد الأوليات ، ومـا إن بدأ المجتمع بأخذ الشكـل الذى يرغب القـادة أن يصبوه فيـــه ، حتى صـــار الاستقــرار ـ وليس التغيـــير ـ هـــدفهم الوحيد . « فالشيوعيـة السوفيـاتية اليـوم هى عقيدة محـافظة بيـروقراطيـة » . فلما مات ستـالين ، وحـاول خروتشوف أنْ يشهِّر بـه فشـل ، لأن القـادة الســوفيـات شعــروا بـأنهم « مضــطرون إلى التقليص من ذكـر مســاوئـه والمبــالغـة فى إنجازات الثلاثينات . مضمون هـذا أن سلوك الحزب كـان صحيحاً بالإجمـال، وبالتـالي فإن مـطالبته بـالسلطة مستقاة من القيـادة المعصـومـة عن الخـطأ التى قـدمهـا فى المــاضى والحاضر على السواء » . وهذا ما يجعـل الولاء للحـزب ولاء وظيفياً وليس فكرياً . هذه النزعة الوظيفية عنـد الحزبيـين ، يسميهـا بـريجنسكى « بيـروقـراطيـة الملل » . ويؤكـد رأيـه بـالقول إن القيـادة السوفيـاتية ، بعـد ربـع قـرن من مـوت ستالين، لم تعترف بما طرأ من مشكلات جـديدة عـلى الإنسـان والمجتمـع ، « فالمشكـلات الصعبة تـوضـع ببسـاطـة تحت البســاط الايديـولوجى » . وهـذا يفسـر شكـوى بـريجينيف الدائمة من عدم تسييس العلماء .

أمـا العـوامــل المبـاشــرة فى تخلف الســوفيــات عن

الأمـريكـان فيمكن استخـلاصهـا من منـاقشـة بـريجنسكى للموضوع عـلى هذا النحـو : انخفاض دخـل العلماء ، ولو أن بـريجنسكى يعترف بـأن السوفيـات يخصصـون من المـال للبحث العلمى بقـدر ما يخصص لـه الأمريكـان . الفصـل الصـارم بين البحـوث العلمية العسكـرية السـرية ، وبقيـة قـطاعـات الاقتصـاد والصنـاعـة ـ « نصف المختـرعـات السوفياتية أهملت عند تـطويرهـا » ، حسب قول البـرافدا . إبقـاء 98% من العلماء السوفيـات فى معاهـد الأبحاث ، فى حين يعمل 60% من العلماء الأمـريكان فى المصـانع . لكـل هـذا يتخلف السـوفيـات عن الأمـريكـان فى صنـاعـات الكمبيوتر ، الترانزستـور ، الليزر والبـلاستيك ، وفى إدارة الأعمال ، وعلاقات العمل ، وأنـظمة التحليـل النفسى ، الاجتمـاعى ، الاقتـصـادى . ويقـدر بـريجنسكى أن السـوفيـات يتخلفـون عن الأمـريكـان فى استخـدام الـذرّة للأغراض السلمية بما يعـادل أربعة عشـر ضعفاً . وكـذلك فى الزراعة . وعلى الرغم من مضى ستين عامـاً على تـأسيس الـدولة ، فـما تزال المنـاقشات بـين العلماء خاضعـة لرقـابـة شديدة وحذرة من قبل البيروقراطيـة الحزبيـة ، مما يخنق جـو الإبـداع والمبادرة ، ويخلق جـواً من الخـوف والامتثـال بـين

صفوف العلماء ، ويعدم فردياتهم المتميزة ، ويتحالف القطاع الايديولوجى مع كبار الضباط على تعويق اللامركزية ، يضاف إلى ذلك قيادة متقدمة فى السن (ويعلق بريجنسكى بأن أعمار القادة السوفيات ليس لها مثيل إلاّ فى الفاتيكان وخلفاء ماو) . وفى النهاية يقول :

« إن هذا الحلف لا يمثل فقط النخبة السياسية بل نخبة المجتمع السوفياتى ، بمعنى أن قوته تمنحه امتيازات ، امتيازات تعادل ما يحصل عليه كبار الرأسماليين من ترف وتسهيلات ومنافع . وهذه النخبة ، شأنها شأن كل طبقة حاكمة ، تنحو إلى أن تغدو محافظة ، تقاوم كل تغير يهدد مركزها . وفوق ذلك ـ وهذا اعتبار بالغ الأهمية ـ فإن الطبقة المتوسطة السوفياتية شديدة البيروقراطية ، تتألف بأكملها من رسميين حكوميين محافظين فى ميولهم السياسية والاجتماعية ، ولم يبتعدوا إلاّ منذ جيل واحد عن أصولهم الفلاحية أو البروليتارية . هذه الطبقة لا تريد التغيير بل ترغب فى المزيد من الرفاهية المادية ، وتشكل الأساس الصلب للقيادة المحافظة » .

ولكن الواقع السوفياتى ، شاء البيروقراطيون المحافظون أم أبوا ، سوف يتغير . وعوامل التغيير فيه

كثيـرة ، يأتى فى طليعتهـا المثقفون الـذين يقـاومـون القمـع . ويـطالبـون بمـزيـد من الحـريـة ، ومعــظمهم ينحـدر من مسؤ ولـين بارزين أيـام ستالـين ـ لكن المثقفين فئـة صغيـرة معزولة تواجه وسائل إعلام فعالـة قادرة عـلى تبسيط العقيدة الـرسمية ، ونـوال رضى الشعب بالتقـدم الـذى أحـرزه . وأهم من ذلـك ، فى رأي بريجنسكي أن «الحزب أقرب إلى الجماهيرمن المثقفين » .

هنـاك مشكلة الأقليات غـير الروسيـة ، وهي تشكل نصف سكان الاتحاد السوفياتى . وهؤ لاء يـطالبون بـالمزيـد من المشاركة فى إصـدار القرارات والـرفاه الاقتصـادى ، كما أنهم يقـاومـون « التـرويس » : « وبمـا أن القـوميـة معـديـة سـواء قمعت أم لقيت التسـامـح ، فـلا بـد أن الاتحـاد السوفياتى سوف يواجـه مشكلة أخطر فى نتـائجها السيـاسية من المشكلة العرقية فى الولايات المتحـدة » ـ على الـرغم من أن الحزب يحذر دائماً من خطر الإقليمية الضيقة .

وأخيراً هناك الـطلاب الذين يتضـاعف عددهم كـل خمس عشـرة سنـة ، ومعــظمهم فى الجـامعـات من أبنـاء الـرسميين ويشكلون وسـطاً صـالحـاً لانتشـار آراء المثقفـين

المنحرفين عن خط الحزب .

على أن بريجنسكى لا يرى نهاية فعلية للستالينية - باعتبار أنه يصنف بريجينيف فى ذلك الخط - إلاّ فى الثمانينات . فبعد بريجينيف يتاح للجيل الذى بلغ الأربعين أن يشكل فئة ضغط على اللجنة المركزية . فهذا الجيل الذى نضج فى جو التقلب الداخلى والخارجى ، واكتسب ثقافة أعلى ، سوف ينتج نخبة لا تؤمن بأن التغير الاجتماعى يتطلب تركيزاً شديداً فى السلطة السياسية . التغير الوحيد الذى يراه بريجنسكى وارداً فى الثمانينات : « تعددية محدودة فى القطاع الاقتصادى - السياسى ، وتأكيد مشدد على الكفاءة التقنية ، فى سياق حكومة سلطوية تمثل تحالفاً بين الشرائح الرئيسية للجماعات المهمة ، وهذا قد يكون بداية العودة إلى تقاليد الماركسية الغربية » .

على صعيد العالم الشيوعى فإن الصدام مع الصين إذا اتخذ شكل حرب طويلة الأمد « فسوف يشكل هزيمة مباشرة للنظام السوفياتى . . . وقد يخلق ضغوطاً لمصلحة حكم رجل واحد أو يتسبب فى انقسام النظام » . والاحتمالات الأخرى لهذا الصراع الخطير ، أن يقوى

العناصر المحافظة والقومية ، بدافع ازدياد الاهتمامات الأمنية .

وعلى العموم ، فإن بريجنسكى يتنبأ بانحلال الرابطة العالمية بين الدول وحتى بين الأحزاب الشيوعية . وهو يرى أن الحركة الشيوعية العالمية مقبلة على مرحلة « الشيوعية الفئوية »، بمعنى أن كل فئة شيوعية تتمسك بالعقيدة على مستوى التجريد الشمولى ، فإذا بدأت بالممارسة على الصعيد القومى انقلبت إلى شيوعية قومية ، وإن ظلت كل فئة تصر على أن منظورها هو المنظور الشيوعى العالمى الذى ينفى تصورات الأحزاب الشيوعية الأخرى ، ويلغى تجاربها : « إن الشيوعية ستشكل قطعة فسيفساء متنوعة بقدر تنوع الأمم فى الجنس البشرى » . وهذا النوع من الشيوعية الفئوية قابل للانتشار فى المستقبل بين أقطار آسيا وإفريقيا . يضاف إلى ذلك أن المثقفين الجدد لم يعودوا يرون فى ماو ولينين مثلهم الأعلى ، بل يجدونه فى غيفارا وبومدين ، والعامل الثالث فى تحويل الشيوعية العالمية إلى شيوعية فئوية هو اختلاف ممارسات الأحزاب فى الوصول إلى الحكم باختلاف البيئات التى يعمل فيها الحزب

الثورى . فثورة كاسترو تختلف عن ثورة ماو اختلاف ثورة منغستو هيلى مريم عن ثورة سوكارنو . وهذا كله يكرس مفهوم الشيوعية الفئوية « Sectarian Communism » وبعد أن يحلل بريجنسكى الانقسامات داخل المعسكر الاشتراكى فى اوروبا الشرقية ، والخلافات بين الأحزاب الشيوعية الأوروبية، والانشقاقات بين شيوعيى العالم الثالث ـ بعد كل ذلك يقول :

« . . لذلك فإن الثورات القادمة لن تعنى إضافة آلية إلى قوة (الشيوعية الأممية) ولن تمثل خطوة إلى الأمام نحو الوحدة الفكرية للجنس البشرى » .

خطورة هذا التعليق على الصعيد السياسى أنه ينطوى على ما يشبه التأكيد بأن العالم الشيوعى سينشغل بنفسه وبحروبه وبخلافاته العقائدية إلى درجة زوال أى خطر منه ضد العالم الغربي . ومن جهة أخرى فإن تعليق بريجنسكى يحمل برهانه فيه ، على اعتبار أن نبوءته هذه كتبت عام 1970 ، وفيها يتنبأ بانفصال رومانيا عن المعسكر الاشتراكى ، وبازدياد الصراع السوفياتى ـ الصينى ؛ وقد أصبح الواقع الشيوعى أسوأ من نبوءة بريجنسكى بعد الغزو

الفيتنامى الشيوعى لكمبوديا الشيوعية ثم الغزو الصينى الشيوعى لفيتنام الشيوعية. كذلك فإن الأحزاب الشيوعية الأوروبية ابتعدت عن موسكو إلى درجة أن الحزب الشيوعى الأسبانى أعلن عن تخليه عن العقيدة الماركسية فيما يتعلق بديكتاتورية البروليتاريا ؛ فى حين أن برلينغر ، رئيس الحزب الشيوعى الإيطالى، صرح بأنه إذا استلم الحكم فلن يجعل إيطاليا تنسحب من الحلف الأطلسي « لأنه يشكل أفضل ضمانة لحرية التجربة الشيوعية فى إيطاليا »! (كلا التصريحين صدر عام 1976) .

وإذا كانت الأحزاب الشيوعية الأوروبية تسعى لضمان انفصالها عن موسكو قبل أن تصل إلى السلطة ، فإن بريجنسكى يرى أن الأحزاب الشيوعية التى تتربع حالياً فى الحكم قد أخفقت فى تحقيق الهدفين الأساسيين من وجودها : تثوير المجتمع ، وتحقيق تقدم اقتصادى سريع . ويستشهد على ذلك بالمقارنة بين : تشيكوسلوفاكيا ـ السويد ، هنغاريا ـ النمسا ، الصين ـ الهند ، شمال كوريا ـ جنوب كوريا . ففى كل الحالات نجد أن الدول التى يحكمها الشيوعيون أقل تقدماً من الدول التى يحكمها

غير الشيوعيين ، على الرغم من التجاور وتقارب البنى الاجتماعية فى كل قطرين على حدة .

هذه المقارنات الخطيرة ، يستخدمها بريجنسكى مقدمة لنبوءة أخطر منها ، وهى أنه « فى الثمانينات سوف تكون الدول الشيوعية أقرب إلى الغرب . وإلى الولايات المتحدة بالذات ، منها الى موسكو ، طلباً للتقنية الالكترونية التى لم يعد بالإمكان تطوير الإنتاج بدونها » .

ورهانه الأساسى ، بطبيعة الحال ، أن الاتحاد السوفياتى عاجز عن تقديم تلك التقنية من جهة ، وعاجز عن منع الولايات المتحدة عن توسيع اتصالاتها بالدول التابعة له . وهو يراهن أن عملية سحب البساط الذى يجلس عليه الاتحاد السوفياتى فى أوروبا الشرقية،عملية ناجحة لأنها ستأخذ شكل مساعدات اقتصادية وليس لها أى شكل استفزازى عسكرى ، لأن الحرب بين القوتين العظميين غدت مستحيلة .

ولكن فى مقابل الاختراق الأمريكى السلمى للمعسكر الاشتراكى ـ ونشاهد مصداقه الآن فى التقارب (الصينى ـ الأمريكى ـ الرومانى)، يبشر بريجنسكى

بـالتساهـل فى اختـراق الشيـوعيـة للعـالم الثـالث (بعـد أن ضمن أنها حين تستقر فى الحكم لن تكون تابعـة لموسكـو) .
بـل هو يكـاد أن يدعـو العالم الثـالث إما إلى تبنى الشيـوعيـة وإمـا إلى الانضـواء تحت حكم قـائـد فـرد ـ عـلى اعتبـار أن الديمقراطية من حق الشعوب المتقدمة وحدها .

حـول انتشار الشيـوعية أو ضـرورتها فى العـالم الثالث يقول بريجنسكى :

« ربما يكون الثـوريون الـذين ينجحون فى الاستيـلاء على السلطة يرون أنفسهم شيـوعيين ، لكنهم سيكـونون فى الواقع عبارة عن تحالفـات منظمـة رخوة بـين مثقفى الطبقـة الـوسـطى اللجـوجـين ، وصغـار الضبـاط ، وبعض الـطلاب . وبـدلاً من أن تخلق التمـاسـك بينهم عقيـدة عالمية ، سيكونون فى الأغلب رجالاً حركهم مـزيج غـامض متقلب من الـراديكـاليـة والقـوميـة وربمـا العـرقية . أمـا الأحـزاب الشيوعيـة فلن تستطيـع أن تفرض نـظامها لا من الناحية الايديولوجية ولا من الناحية التنظيمية عـلى الطلاب والمثقفـين السـاخـطين ـ عـلى الـرغم من خبـرتهـا فى تنـظيم العمـال المستغلين ، وتحويـل الفـلاحـين المعـدمـين الـذين

تلهبهم المشاعر القومية ، إلى جيش ثورى » .

هــذا الخليط الثـورى غــير المتجــانس ، معــرض للانفراط بسبب النزعة الانتقائية عنـد الفئات التى تشكله . والخــطر من تفككـه أنــه قــد يجــر المجتمــع بــأكمله إلى التفكك : « إن المجتمع الذى قد يحمل الانتقائيـة إلى حيث تغـدو الثقافـة ووعى الفرد مجـرد كتل من عنـاصر متحللة ، سيجـد من المستحيل عليـه أن يتخذ قـراراً جماعيـاً حول مـا يمكن أن يصنعه المجتمع بالفرد» .

عنــد هــذه النقــطة ، أصبحت النقـلة إلى الحكـم الفردى ضرورة :

« فـالزعيم القـائد يمكن عنـدئذ أن يكـون بديـلاً عن مهمـات التضامن فى المجتمـع ، هذه المهمـات التى تحققهـا ايـديـولـوجيـا رسميـة أو ضمنيـة . ففى غيــاب المـوافقــة الإجمـاعية يمكن أن تنصهــر حـاجــات المجتمـع العقليــة والانفعالية في شخص فرد يحافظ عـلى نظام المجتمـع ويعمل عـلى تجـديـده . إن المجتمعـات حـين تخـير بــين الفـوضى الفكرية ـ غير الثـورية ـ والقيـادة الفرديـة السلطوية سـوف

تتقبل الخيار الثانى ، ولو كان لها بعض المؤسسات الدستورية الديمقراطية » .

على صعيد الممارسة ، نجد أن الولايات المتحدة تساهلت فى « الثورات » التى تدخلت روسيا مباشرة فى إثارتها ، فى افريقيا : أنغولا وموزامبيق والحبشة ، وفى آسيا : فى فيتنام وكمبوديا وأفغانستان . كما أن بريجنسكى سعى إلى تحسين علاقات الولايات المتحدة بالأنظمة الثورية القائمة من قبل ـ لكى يكسر احتكار الروس للتعامل مع الثورات . ومن هذا المنطلق الأخير يمكن تفسير السهولة المذهلة التى وافقت بها الولايات المتحدة على الانسحاب من إيران . وتقبل الثورة الإيرانية .

ماذا أبقى بريجنسكى للسوفيات ، بعد تفكك العالم الشيوعى . وانحلال العقيدة ، ومشاركتهم فى الثورات التى يحدثونها ؟ ترك لهم التقدم فى وسائل الدفاع دون القدرة على تطوير الاقتصاد أو تحسين مركزهم الدولى . ومستنده على الدوام أن الغرب فى الطريق إلى إنجاز الثورة العلمية التكنترونية ، وبالتالي فلديه نظرية عن نتائج هذه الثورة على المجتمع . فى حين أنه لا توجد نظرية ماركسية

عن تلك الثورة بل توجد بلاغة ثورية :

« من المفارقة أن العقم البيروقراطى فى التفكير يستثير تأكيدات مشددة على البلاغة والرموز الثورية . . . وهذا مظهر مشترك بين كل العقائد فى حال انحطاطها الفكرى . . . إن الايديولوجيا السوفياتية لم تعد تتشكل فى خضم التفاعل المبدع بين التفكير النظرى والممارسة . . . بل تعتمد على تقارير اللجان والمواد الورقية التى تحول إلى المكتب السياسى ليوافق عليها » !

ولكى يدق بريجنسكى آخر مسمار فيما تصوره أنه نهاية الثورة الشيوعية العالمية ، يعمد إلى المقارنة بين الثورة الفرنسية (1789) والثورة البلشفية (1917) . فيزعم أن الأولى مخصبة إلى اليوم وأن الثانية عقيمة وعلى وشك أن تلفظ آخر أنفاسها .

يقول بريجنسكى :

« تمت الثورة الفرنسية فى إطار مؤلف من تقليد فكرى مثالى ، عقلانى ، ومن إطلاقية عاجزة . أما الثورة الروسية فقد سبقتها نزعة طوباوية وتعصب فكرى ، فكانت ردة فعل على إطار سياسى أوتوقراطى مطلق .

تأثرت الثورة الفرنسية بالطبقة الوسطى الحرفية ، وهى مثالية وغير منظمة . أما الثورة البلشفية فتأثرت بحزب على مستوى رفيع من التنظيم والايديولوجيا والاحتراف . لم يكن لدى الثوريين الفرنسيين خلال وجودهم القصير فى السلطة وقت كاف لإعادة تنظيم جذرية للمجتمع الفرنسى . أما البلشفيك . وخاصة بقيادة ستالين ، فقد فكوا وأعادوا تركيب الآلة الاجتماعية بأكملها ، فيما هم يعملون على الثورة الصناعية والمدنية . كانت الطبقة الوسطى الفرنسية طبقة قلقة ومجددة فى النواحى الفكرية ، أما الطبقة الوسطى الجديدة فى المجتمع السوفياتى فهى محافظة ومضادة لأى اجتهاد . أخيراً ، وليس آخراً فإن نابوليون وريث الثورة الفرنسية ـ هزم ، أما ستالين فقد انتصر » .

بعد كل هذه المماحكات الفكرية ، بماذا يرد السوفيات على بريجنسكى ؟

ينقل هو ، أنه بعد أن نشر نظريته عن تأثير الثورة التكنترونية على المجتمع فى المستقبل ، صار الكتّاب والمعلقون السوفيات يسمونه « مزيف المستقبل » . وحين

قال إن نمط التحرر الذى ظهر فى تشيكوسلوفاكيا سوف ينتشر فى المجموعة الشيوعية ، « خصص فالنتين زاخاروف ، المعلق الرسمى فى راديو موسكو ، برنامجاً كاملاً عن فكرة أن ماركوس وبريجنسكى يشتركان معاً - لمصلحة المخابرات المركزية الأمريكية ، بطبيعة الحال - فى تنظيم الثورة المضادة فى تشيكوسلوفاكيا » .

قد يكون هذا الزعم صحيحاً أو لا يكون . ولكن بريجنسكى الذى يجلس مستريحاً فى البيت الأبيض فوق كل الأجهزة ودوائر الأبحاث فى أمريكا والغرب ، يرى أن بين الناس أفراداً هم أكبر من المؤسسات التى يشتغلون لها حيناً ثم تشتغل لحسابهم فى بقية الأحيان .

أمريكا وآفاق المستقبل الدولي حتى نهاية القرن

— 4 —

إذا كانت الثورة العلمية الالكترونية سوف تؤدى - فى رأى بريجنسكى - إلى انحلال الروابط العقائدية فى الأقطار الشيوعية ، فإلى أين ستقود هذه الثورة العالم الغربى ، وعلى رأسه الولايات المتحدة ؟ هل تستطيع الولايات المتحدة أن تجتاز التغيير المنشود ، وتمنحه معنى فلسفياً تحافظ بواسطته على الديمقراطية وتماسك المجتمع معاً ؟

فى نهاية هذا القرن سيبلغ عدد سكان أمريكا ثلاثمائة مليون ، نصفهم تحت العشرين ، ويعيش 80% منهم فى المدن . هذا المجتمع الذى سيجتاز أغرب تحول فى تاريخ العلم ، لا بد أن يشهد صراعات اجتماعية وعرقية مصحوبة بازدياد الخلاف بين الأجيال . فبما أن قطاعات قليلة من المجتمع الأمريكى سوف تشارك فى الثورة

العلميـة الجديـدة ، فسوف تنقسم أمـريكا ثـلاثة أقسـام : القـطاع التكنترونى ، القـطاع الصناعى ، القـطاع مـا قبـل الصناعى حيث يعيش الزنوج . وعلى الرغم من التوسـع فى تعليمهم وارتفاع دخولهم ، فـما يزالـون متخلفين ، ويشكلون عبئاً على النـظام الاقتصادى لأنهم ليسـوا جزءاً من عمليـة النمـو ، كما يعيشـون خارج المجتمـع الأمـريكى الأبيض ، بسبب انخفـاض مستـواهم التعليمى والمعـاشى ، وبسبب تحـامل البيض عليهم لأنهم يحـرمـون الخـريجـين السـود من المناصب التى يستحقونها .

مـع المشكلة العـرقيـة تـأتى مشكلة العنف بنـوعيـه ، السياسى والإجرامى : « فأمريكا مشبعة نفسيـاً بالعنف » ، فالأفلام والتلفزيون والتاريخ المحـلى والدولى ، كلهـا توحى بالعنف (خلال مـراقبة التلفـزيون لمـدة أسبوعـين ، عرض مقتل 790 شخصاً ، وكـان فى كل سـاعة عـرض 15 حادثـة عنف) . ويزيد من العنف التوتر بين القطاعات الأمريكية الثلاثة . هذا التوتـر كان من المفـروض أن تستوعبـه السيـاسة ، إلاّ أن شـدة ضغط كل قـطاع ، وتفتت المجتمع إلى أفـراد يوحيـان بعقم العمل السياسى . وهـذا ـ فى رأى بـريجنسكى ـ سبب ولادة اليسـار الجـديـد فى أمـريكـا .

فالشبان المثاليون والخارجون على المجتمع ، حاولوا أن يتخلصوا من عقم الليبرالية وحرب فيتنام وانحلال أسرهم ، بالمخدرات وبمذاهب سياسية طوباوية تعتمد على علم النفس والفلسفة الفوضوية ، النتيجة فى رأى بريجنسكى أنهم أوجدوا « ايديولوجيا طفولية هروبية ولا عقلية »، يعتمد نضالها على البلاغة اليسارية والمناقشات الايديولوجية « التى تبلغ حد الهلوسة » . هذا اليسار « أهميته كظاهرة للتغير الاجتماعى أكبر من أهميته فى برامج رسالته . . . فهو معنى بأن يخلق إحساساً بالاستغراق بالعمل عند أتباعه ، وبأن يطلق العنان لعواطفهم » . ربما أن اليسار الأمريكى نشأ نتيجة التوتر والاحتكاك بين أقسام أمريكا الثلاثة فقد عبر عن نفسه بالعنف داخل الجامعة « لأنها تقدم له أكبر فرصة للنجاح بأقل مقدار من المجازفة » . وهو يرفض الديمقراطية والرأسمالية والثقافة معاً . مواقف هذا اليسار وأساليبه أثارت مخاوف الليبراليين المحافظين الذين يتخوفون من الفوضوية والنظم الجماعية (التوتاليتارية) .

ولئن كانت الديمقراطية هى حكم الأغلبية من خلال مؤسسات محددة تحديداً قانونياً دقيقاً ، فإن المذهب

الليبرالى لم يقدم للولايات المتحدة أية قيم أو مؤسسات ثقافية تضمن تماسكه . وحين حل الشك محل أى إيمان أصبح المجتمع الأمريكى فى حالة انحلال : « إن التكاليف الاجتماعية لغياب الاقتناع والآثار المثلة للشك كمبدأ سائد ظهرت بشكل محزن فى رد الفعل المزدوج الذى أبداه الليبراليون تجاه اليسار الجديد واليسار الزنجى » ـ وهذا الأخير يرفض الاندماج بالمجتمع الأمريكى ويطالب بإنشاء مؤسسات خاصة بالزنوج . وبما أن الليبراليين من أنصار مساواة السود والبيض ، فقد كسبوا (الليبراليون) عداء العمال وصغار الكسبة الذين أضرت المساواة بمصالحهم . كما أن إيمان الليبرالى بالعدالة الاجتماعية دفعه إلى تأييد تزايد تدخل الدولة مما أثار عليه أيضاً الطبقة الغنية ، دون أن يستطيع حل مشكلة القطاعات الفقيرة بإجراء جذرى ـ كل هذا أنهكه ، وأفقده تفاؤله وإيمانه بالمستقبل ورؤياه لمجتمع متناغم . وبالتالى فقد انسحب الليبرالى من الممارسة إلى القوقعة الإيديولوجية . وهكذا غدت الليبرالية اليوم عاجزة عن تقديم المثل أو تحريك التقدم ؛ لذلك فإنها تعانى أزمة ثقة بنفسها وبمكانتها من التاريخ . كما أن نجاحها التاريخى فى السابق جعلها ـ كالشيوعية ـ لا تبالى بالتغيرات الطارئة والمحتملة ، وهى

ـ كالشيوعية الرسمية أيضاً ـ تقابل التحدى باللامبالاة وبالحجج اللفظية وأخيراً ، بالجمود العقائدى . كل هذا قد يؤدى إلى مجتمع مبتدع على الصعيد التكنولوجى ومحافظ من الناحية السياسية . ولكن حتى هذا غير مضمون ، فى رأى بريجنسكى فقد يؤدى الجمود السياسى إلى فقدان حافز الإبداع العلمى ، كما أن التوتر الاجتماعى ـ الاقتصادى قد يتعمق بفعل التفرقة العنصرية وسخط الشبان واستلابهم ـ مما يؤدى إلى زيادة العنف بتشكيل فرق تحترف حرب العصابات فى المدن . وأخيراً فإن دور أمريكا العالمي قد يؤدى الى انشقاق عميق داخل المجتمع الأمريكى ، مما يدفع أقصى اليسار أو أقصى اليمين إلى الاستيلاء على السلطة لفرض النظام والوحدة على الشعب الأمريكى . ويرى بريجنسكى أن فرص اليسار ضئيلة فى النجاح ، لتجاهله القضايا والتطورات الجديدة التى أثارت الأزمة ، ولتمسكه بالشعارات الماركسية الغريبة عن عقلية الشعب الأمريكى ، ولفقدان التنظيم الواسع ، ولأن الثوريين لم يقنعوا الشعب ولا المثقفين بأنهم يقدمون بديلاً أفضل من النظام القائم . ومع ذلك فإذا استمر التحلل والعنف فسوف يتحول المجتمع إلى اليمين ، فإذا

استلم المحافظون السلطة استخدموا المؤسسات الدستورية لتقنين القمع السياسى ضد خُصومهم من الليبراليين واليساريين على السواء وبريجنسكى لا يستبعد احتمال وقوع انقلاب عسكرى فى أمريكا ، بين احتمالات عديدة . غير أن الاحتمال الأكبر عند بريجنسكى أن تنشأ قيادة من تحالف الليبراليين والعلماء، تستخدم ما لديها من وسائل علمية لتطويع الرأى العام وإلغاء جموح فرديته ـ فإذا وجدت هذه القيادة شخصية آسرة لمنصب الزعامة تم تحويل المجتمع الأمريكى إلى مجتمع مروض فاقد لحريته . وبالمقابل ، فبريجنسكى يرى أن « عدم الكفاءة التنظيمية ، والتسرُّب التدريجى للسلطة السياسية من أيدى المسؤولين فى الأقطار الشيوعية ، وشدة إلحاح القضايا الإنسانية عليهم قد يؤدى إلى ابتكار نظام اجتماعى أكثر مرونة ، فى الأقطار الشيوعية الشديدة التقدم . »

وهكذا يتنبأ بريجنسكى بتبادل الأدوار بين مجتمعى الدولتين العظميين ، والولايات المتحدة تتجه نحو المزيد من التصلب ، ونحو حكم الزعيم الواحد . وهذه فى رأيه أزمة الديمقراطية الليبرالية فى المجتمع الأمريكى تحت الثورة

العلميـة الجـديـدة فـإذا كـانت هـذه هى الأزمـة ، فـما هـو الحل ؟

يرى بريجنسكى أن الحل إنما يكون بالتمسك بالمذهب الإنسانى العقلانى، مع تطويرات يقترحها، هى :

1 ـ انفتاح أمريكا على المشكلات العالمية، وعدم انغماسها فى مشاكلها الداخلية فقط. هذا الانفتاح يعطى الشبان الأمريكيين قضية أو رسالة تصرفهم عن التركيز الشديد على الذات.

2 ـ نشر النظرة إلى المشكلات العالمية على أنها قضايا إنسانية وليست سياسية فقط، وذلك لتجنب المواجهة مع الشيوعيين فى الخارج والمتصلبين ضد الشيوعية بين الرسميين الأمريكيين.

3 ـ تشجيع التدين الفردى الخارج عن قبضـة المؤسسات الدينية، وبذلك يحافظ المجتمع الأمريكى على مثاليته دون أن يقع فى نزعة الإلحاح على حل مشاكله فوراً ودفعة واحدة.

4 ـ بما أن هذه المثالية فردية فإنها تسهم فى القضاء على الإيديولوجيات العالمية ، وتساعد على تعدد الثقافات والأنظمة

الاقتصادية فى المجتمعات البشرية. هذا التعدد يخفف من حدة التوتر العالمى لأنه لا يجبر أمريكا على مواجهة معسكرات ضخمة. فأى مجابهة تجعل الوضع الداخلى فى أمريكا يختل ثم يتجه إلى اليمين المحافظ الذى يصر على أنه لا يمكن تحقيق الديمقراطية إلّا على حساب المساواة. وبالعكس.

هذا الوضع الأمريكى المعقد، المضطرب. والجانح دائماً نحو اليمين، لا بد أن ينعكس على سياسة أمريكا الخارجية. غير أن الاستراتيجية السياسية لدولة عظمى لا تقوم فقط على الوضع الداخلى، وإنما ترسم بحسب تصور المسؤولين للوضع فى العالم.

فى العالم الثالث. يتنبأ بريجنسكى بحدوث المزيد من الثورات، لكنه ينبه إلى أنه «كلما أظهرت أمريكا مزيداً من التفهم لهذه الثورات، وحسن النية تجاهها، قل توجه هذه الثورات نحو الاتحاد السوفياتى بعد أن زالت جاذبية العقيدة العالمية الشاملة». والتحفظ الثانى الذى يبديه بريجنسكى أشد أهمية. فهو يقول إن هذه الثورات سوف تفشل فى تطوير المجتمع لأن «الانتلجنتسيا الثورية فى البلاد المتخلفة تمثل تخلفاً اجتماعياً عن العصر. ففيما يخص عملية التحديث، فإن هذه الانتلجنتسيا أمية تماماً

فى تطورات العلم والتقنية الجديدة» . وذلك على خلاف ما كان الأمر فى الانتلجنتسيا الثورية فى الصين وروسيا ، حيث كانت « فى طليعة عملية التحديث » .

فى العالم العربى وإفريقيا يتنبأ بريجنسكى بتعميم النموذج الانقلابى العراقى والسودانى . هذا النموذج يقوم على تحالف صغار الضباط مع المثقفين الثوريين . ويحلل بريجنسكى هذا التحالف ، فيصف الضباط بالراديكالية وبالاطلاع على إنجازات التقنية الحديثة ، فى حين أن المثقفين الثوريين العرب جاهلون فى شؤون التقنية وانعكاسها على المجتمع ، على الرغم من خطورة هذه الناحية . على أن بريجنسكى يتحامل على هؤلاء المثقفين ، وينعتهم بأنهم « أميون » حتى فى ثقافتهم الثورية . ويراهن على أنهم لن يستطيعوا إنجاز الطور الثانى للثورة بعد استلامهم للسلطة :

« تشتمل الثورة الكاملة على طور ثان : هو إبداع نظام سياسى وتقنينه فى مؤسسات . الثورة الناجحة تصل التحريك السياسى السريع بمؤسسات دستورية سياسية سريعة . ولا تنتج كل الثورات نظاماً سياسياً جديداً . إن مقياس ثورية الثورة هو سرعة ومدى توسع المشاركة

السياسية . أما مقياس مدى نجاح الثورة فهو السلطة والاستقرار اللذين تنالهما هذه المؤسسات الدستورية من الثورات التى أوجدتها . »

وبعبارة أخرى ، المشكلة هى : إلى أى حد يتقيد المسؤولون بالقوانين التى وضعوها ؟ وهل يبلغ الثوريون العرب حداً من النضج يمكنهم من وضع قوانين واحترامها ؟ وأخيراً ، هل تهمهم مشاركة الجماهير أم يغلقون أبواب مكاتبهم على أنفسهم ويحتكرون مغانم السلطة وحدهم ؟

فى أمريكا اللاتينية يصر ، مرة أخرى ، بريجنسكى أن للثورات طابعاً كاثوليكياً وليس ماركسياً . أما جنوب شرق آسيا ، فيتنبأ له بريجنسكى بأن تتفتت الهند وباكستان لانعدام التجانس العرقى والدينى . فتنفصل تاميل فى الجنوب على أساس يسارى ضد الهندوس اليمينيين فى الشمال . غير أن ثقل التخلف الاقتصادى كفيل بامتصاص كل محاولة شيوعية وتحويلها إلى عقيدة محلية قومية . ولكننى أشك فى إمكان ذلك ، لأن الاتحاد السوفياتى بحاجة إلى كتل ضخمة حول الصين . لأن بريجنسكى يتنبأ ، بتزايد التوتر بين الصين والاتحاد

السوفياتى بفعل زيادة « تصيين » الشيوعية والابتعاد بها عن النموذج السوفياتى . « هذه الثورات ستحمل بالضرورة طابعاً عدائياً قوياً ضد أمريكا . يصدق هذا خاصة حيث للوجود الأمريكى طابع تقليدى مرئى . أما فى المناطق المتاخمة للاتحاد السوفياتى والصين فمن المحتمل على المدى الطويل أن يسودها اتجاه معاد للسوفيات ومعاد للصين » . وهو ينصح أمريكا بالتساهل إزاء الثورات « لأن تشدد أمريكا هو الذى يدفع الثورات إلى أحضان الاتحاد السوفياتى » . فى حين أن تطلع النخبة الحاكمة دائماً يتجه إلى الإنجازات التقنية الغربية ، فى رأى بريجنسكى ، وهو يضيف : « إن الاتحاد السوفياتى لا يمثل البديل الاجتماعى الفعال الذى يقدم للعالم نموذجاً جذاباً ومعاصراً ، ليعين هذه الدول على معالجة معضلاتها القديمة أو الحديثة ، خاصة ما تفرضه عليها العلم والتكنولوجيا . لذلك ، فإن أعقل ما يمكن أن تفعله أمريكا هو أن تسعى تدريجياً إلى زيادة الانغماس السوفياتى فى التعاون الدولى . . » .

وهو يردد المرة تلو المرة أن تطمين روسيا خير من تهديدها . فالتطمين يؤدى إلى تشجيع القائلين بسياسة اللامركزية والمرونة الفكرية ضد التيار المتعصب قومياً

وإيديولوجياً . وهو يردد دائماً أن الاسترخاء العقائدى سيشجع شرق أوروبا على التعاون مع غربها ومع الولايات المتحدة ، دون خوف من إثارة غضب السوفيات . بل إنه حين يتعرض للمناطق التى يتوجب أن يكون لأمريكا فيها وجود عسكرى ينصح بتقليص الوجود العسكرى الأمريكى ليقتصر على كوريا الجنوبية وبرلين وكندا والمكسيك وإسرائيل . وذلك على أساس أن « الحضور العسكرى المطول للولايات المتحدة يجلب لها العداء السياسى حتى فى الأقطار المصادقة لها بشكل تقليدى ، مثل تركيا » . لذلك يجب أن نتوقع إجلاء القوات الأمريكية عن تركيا بعد إيران . وحجته الدائمة التى بنى عليها استراتيجيته تتلخص فى أنه : « مع الكوابح التى يفرضها دمار الأسلحة الذرية على شن الحرب الشاملة ، ومع احتمال أن يحل العنف فى أنحاء العالم الثالث محل الاهتمام السابق بالحرب المركزية . . فلا لزوم للقوات الأمريكية فى الخارج إلاّ فى مواضع قليلة » . بل إنه يبلغ إلى اقتراح إلغاء الخدمة الالزامية ، وقصر الجيش الأمريكى على « متطوعين محترفين » .

إلى جانب إشراك الاتحاد السوفياتى ومصادقة

الصين ، يقترح بريجنسكى إشراك أوروبا الغربية واليابـان فى شؤون العـالم ، عـلى اعتبـار أنهما « مـع أمـريكـا ، طليعــة الابتكار العلمى والتقنى ، وهما تمثـلان أكثر المنـاطق حيويـة على الكرة الأرضية » . وهو يقترح نظامـاً عالميـاً تشكل فيـه أمريكا مع أوروبا الغربية واليابان وحـدة ،تتولى فيهـا أوروبا الغربية أمر التعاون المتزايد مع أوروبا الشرقية ، واليـابان مـع الصين ودول جنوب شرق آسيا (وهذا ما حصـل فعلاً هـذا العـام) . وهـو يـرى أن أعـطاء اليـابـان دوراً عــالميـاً أمــر ضرورى لتوازنها الـداخلى : « فـاليابـان ستعانى صـراعات داخلية مزعجة إلى أبعد حد ما لم يتم استثارة المثاليـة اليابـانية وتــوجيهها نحــو أهـداف أوســع من الملذات الشخصيـة الضيقة » . ولنتذكر ان هذا العلاج عينه وصفـه بريجنسكى لشبـان أمـريكـا كى يصـرفهم عن الاستغـراق فى المشـاكـل الداخلية برسالة عالمية .

إن تشكيـل وحدة علميـة ـ اقتصـاديـة ـ دفـاعيـة من أمـريكـاوأوروبا الغـربيـة واليـابـان « سيقـدم اطــار عمـل سياسى ـ أمنى يمكن فيه النظر إلى الاهتمامـات الأمنية لكـل دولة فى سياق يضـع فى حسابـه ارتباطـاته الحتميـة بين أمـور مثـل سيـاسـة السـوفيـات فى بـرلـين ، والأزمـة الصينيــة ـ

السوفياتية ، وتطور الصين الذرى ومضموناته ، أمن اليابان والعلاقات بين شرق أوروبا وغربها » .

هذه الوحدة الغنية المتقدمة سوف تجلب إلى فلكها دول أوروبا الشرقية أولاً ، والاتحاد السوفياتى وراءها ، لأن « اتساع الترتيبات بين شرق أوروبا وغربها قد يغدو السبيل الذى تنتهجه موسكو للاحتفاظ بروابط فعالة مع عواصم شرق أوروبا »!!

وبما أنه يرى أن البيرقراطية المحافظة فى الاتحاد السوفياتى لا بد أن تنحنى شيئاً فشيئاً أمام عواصف التغيير نحو مجتمع أكثر إنسانية وأقل ايديولوجية ، فإنه يقترح إلغاء الحرب الباردة من الجانب الغربى ، وزيادة التعاون لخلق « تقاليد تعاونية . . . واحساس بهدف مشترك » عبر التطور الاقتصادى والمعونة التقنية ، والترتيبات الأمنية بين الشرق والغرب . ولكن ، ما العمل إذا رفض الاتحاد السوفياتى التعاون ؟ يجيب بريجنسكى بثقة : « فى 1985 سيبلغ مجموع الإنتاج القومى للولايات المتحدة ، وأوروبا الغربية ، واليابان حوالى ثلاثة تريليون دولار ، أو أربعة أمثال مجموع انتاج الاتحاد السوفياتى . . ومع التحول التدريجى لبعض دول شرق أوروبا نحو المزيد من التعاون

مع السوق الأوروبية ، فإن الاتحاد السوفياتى لن يستطيع الامتناع إلاّ بخسارة عظيمة على حساب تطوره ومركزه العالمى » .

فإن صحت الأحلام وتحققت وحدة العالم الغربى واليابان ، ثم تم دمج المعسكر الشيوعى والصين فى هذه الوحدة ، ألا تتحقق أسوأ مخاوف الزعماء فى العالم الثالث ، من أن ينقسم العالم إلى أغنياء وفقراء ، ويتحول الصراع من محور الشرق ضد الغرب إلى محور الشمال ضد الجنوب ؟

يجيب بريجنسكي بأعصاب باردة : إن العالم منقسم فعلاً . والخلافات بين الدول المتقدمة تفيد الدول المتخلفة - « ولكن بما أن مثل هذه المساعدات تنحو إلى التركيز على فوائد سياسية قصيرة الأمد للمتبرع . فهى تخضع للتقلبات السياسية ، وقد تنخفض حين تخف حدة المنافسة الدولية » . وبالتالى فإن نظام التعاون بين الدول المتقدمة قد يؤدى إلى استراتيجية طويلة الأمد للمساعدات الدولية . التحالف لم ينشأ على الخوف والبغض بل على روح تعاون متبادل هدفه تخفيف حدة التوتر الدولى - بعكس الأحلاف أيام دالس وستالين . ثم إن المعسكر

الشيوعى من القوة، بحيث «لا تستطيع أمريكا أن تشكل العالم بمفردها ، ولكنها قد تكون القوة الوحيدة القادرة على إثارة الجهود فى سبيل ذلك » . إن تشكيل حلف من الدول المتقدمة ، بصرف النظر عن عقائدها إنما هو محاولة « لخلق اطار جديد للشؤ ون الدولية ، ليس عن طريق استغلال النزاعات الدولية بل بالسعى إلى خلق منافذ للوفاق العرضى، والاحتفاظ بها مفتوحة . وأخيراً ، فإن الحلف المقترح يعترف بأن بين الأمم المتقدمة صلة معينة . فقط ، عن طريق تنمية حسٍ جماعى أكبر بينها ، يمكن التوصل إلى استجابة فعالة للتهديد المتزايد من الانقسامات العالمية التى يزيد حدتها الإلحاح العالمى المتعاظم بعدم المساواة بين البشر » .

إذا ترجمنا هذا البيان إلى سياسة عملية ، على ضوء الكتاب بأكمله ، فإن بريجنسكى يقول إن الأمم الفقيرة تثور ، وليس بإمكان دولة واحدة قمع الثورات ، ولكن تحالف الأمم المتقدمة يكفل لها إعادة سيطرتها على العالم ـ واقتسامه فيما بينها بالتراضي وليس بالعنف . أما ثمن هذا التحالف فهو التنازل عن الايديولوجيا ، والغاء الصيغ القطعية ، ما دامت السيادة بالحرب النووية مستحيلة .

إن المشـــروع استعمـارى بـــأكمله ـ ولكن من نـــوع جديد . فبعد أن يشكل حلفاً من الدول الغـربية واليـابان ، يعرض التحالف مع الدول الشيوعية ، ويجعـل ثمن الحلف مساعدات تقنية واقتصاديـة ، مقابـل تنازلهـا عن معتقداتهـا وتضامنها فيما بينها . ويكفل لها حصتها من مناطق النفـوذ فى العـالم الثالث ، أمـا العالم الثـالث . فليس لدى بـريجنسكى ما يقدمه له إلّا الثورات ، والبلاغة الثورية ، والانقسامـات الداخلية ، وحلفاً متماسكـاً من الدول المتقـدمة كفيـل بمنع أى تحرك جدى أو جـذرى من أمم العالم الثـالث نحو تحقيق أحلامها القومية ، واستعـادة شخصيتها الحضـارية ، وبنـاء مستقبل أفضل .

ومهـما يكن من أمر ، فـإن بريجنسكى يـزعم أن هـذا المشـروع ، إذا كان لا يـوافق العـالم الثـالث . ولا الحـركـة الشيـوعية العـالمية ، فـإنه يشكـل العالم عـلى صورة أمـريكا ومثـالها ، وبـالتالى فـإنه يحفظ مصـالحها عن طـريق الحفاظ على إمكانياتها فى التقدم :

« إن الاحتيـاجات الـدوليـة المنـاظـرة لاحتيـاجـاتنـا المحليـة متكـافئـة : فـالتشكيـل التـدريجى لجمـاعـة الأمم المتقـدمة سيكـون تعبيراً واقعيـاً عن بـزوغ وعينـا العـالمى .

والتـركيـز عـلى انتشـار المعـرفـة العلميـة والتقنيـة سيعكس التـوجـه نحـو المـزيـد من المعـالجــة الـوظيفيــة لمشكـلات الإ نسان . مشددين على الإيكولوجيا بدلاً من الإيديولوجيا (علم البيئـة بدلاً من المـذاهب العقائـدية) . كـلا العاملين السـابقين سـوف يشجع انتشـار نظرة عـالمية أكـثر إنسـانيـة وعقـلانية وشخصـانية ، تخلف بـالتدريـج المنظورات ذات المؤ سسات الدينيـة والايديـولوجيـة والقوميـة ، التى سادت العالم المعاصر » .

لكى ينجــح هــذا المخــطط ، لا بــد من إشـراك روسيا ، « لأن ظروف العـالم لا تستدعى سـلاماً أمـريكياً ، كما أن هذا العصر ليس عصر السيادة الأمريكيـة الشاملة » . إن هـذا التصريـح يجيب على تسـاؤ لات اليمين المتـطرف فى العالم الثالث ، حين يقول للأمريكان متهماً : « أنتم تجلبـون السوفيات إلى عقـر دارنا » . وكـل نظام لا يضـع فى حسابـه الشراكة الجديدة سوف يفاجـأ بأمـريكا بـالذات تتـآمر عليـه مع أعدائه . على أساس أن نصف ثورة تنتهى بنـظام ، خير ـ لأمريكا ـ من ثـورة تنتهى بفوضى قـد تنتشر فى منـطقة مـا ولا تنتهى إلاّ بتوحيد تلك المنـطقة . هـذا هو الـدرس الذى حفـظته أمـريكا من فيتنـام التى لم تكتف بـطرد أمـريكـا من

جنوب شرق آسيا ، بل ضمت إليها فيتنام الجنوبية وكمبوديا ولاوس . فأمريكا تسلم بثورات موضعية بذات الحدود السياسية القائمة ، وهى تأمل فى أن يعاونها الاتحاد السوفياتى على ذلك . فهل تصح الأحلام ؟

قد يكون من حق السياسي أن يضع مخططات لسياسته الدولية ، أما أن يطرح تلك المخططات على شكل نبوءة لما سيكون عليه العالم بعد عدد من السنين ، فإنه يجازف بأن يكون سائحاً يكتب اسمه على جدران المدن الميتة ، كما يقول كولاكوفسكى ، فى عبارته البليغة :

« إن فلسفة للتاريخ جديرة بالاعتبار تقتصر فقط على وصف ما هو قائم ، وعلى الماضى ، وليس على المستقبل الخلاق للعملية التاريخية . لهذا السبب ، فإن الذين يرغبون فى ربط التزاماتهم فى عمليات مقبلة بتصاريح فلسفة التاريخ ليسوا أكثر من سياح يكتبون أسماءهم على جدران مدن ميتة » .

محيى الدين صبحى

فهرس

العروبة

أكثر من أي وقت مضى

العروبة .. أكثر من أى وقت مضى لا تشكل فقط حلاً لمشكلاتنا الداخلية والخارجية، بل إنها أيضاً قيد التحقق - وإلاّ، فلماذا هذه الهجمة العمياء تشنها القوى المعادية من حدود الجزائر الى ليبيا فمصر وسوريا وبقية البلاد العربية؟ لو لا أن العروبة على وشك أن تحقق نفسها، لما وجد كل هؤلاء الأعداء يتكالبون على أرضها وشعبها وقياداتها فيمعنون تقتيلاً وتفتيتاً في النخبة والقاعدة على السواء، وهم مع ذلك يشعرون بأنهم لم يربحوا ضدنا المعركة. فلا الولايات المتحدة مطمئنة، ولا إسرائيل آمنة، ولا أوروبا الغربية مستريحة، ولا الاتحاد السوفياتى نفض يديه من قضايانا، ولا العالم الثالث يئس منا، ولا نحن ألقينا السلاح، ولا حتى أطفالنا جزعوا من هول ما نلاقى.



